أنيس منصور

الناى السحرى
موتسارت



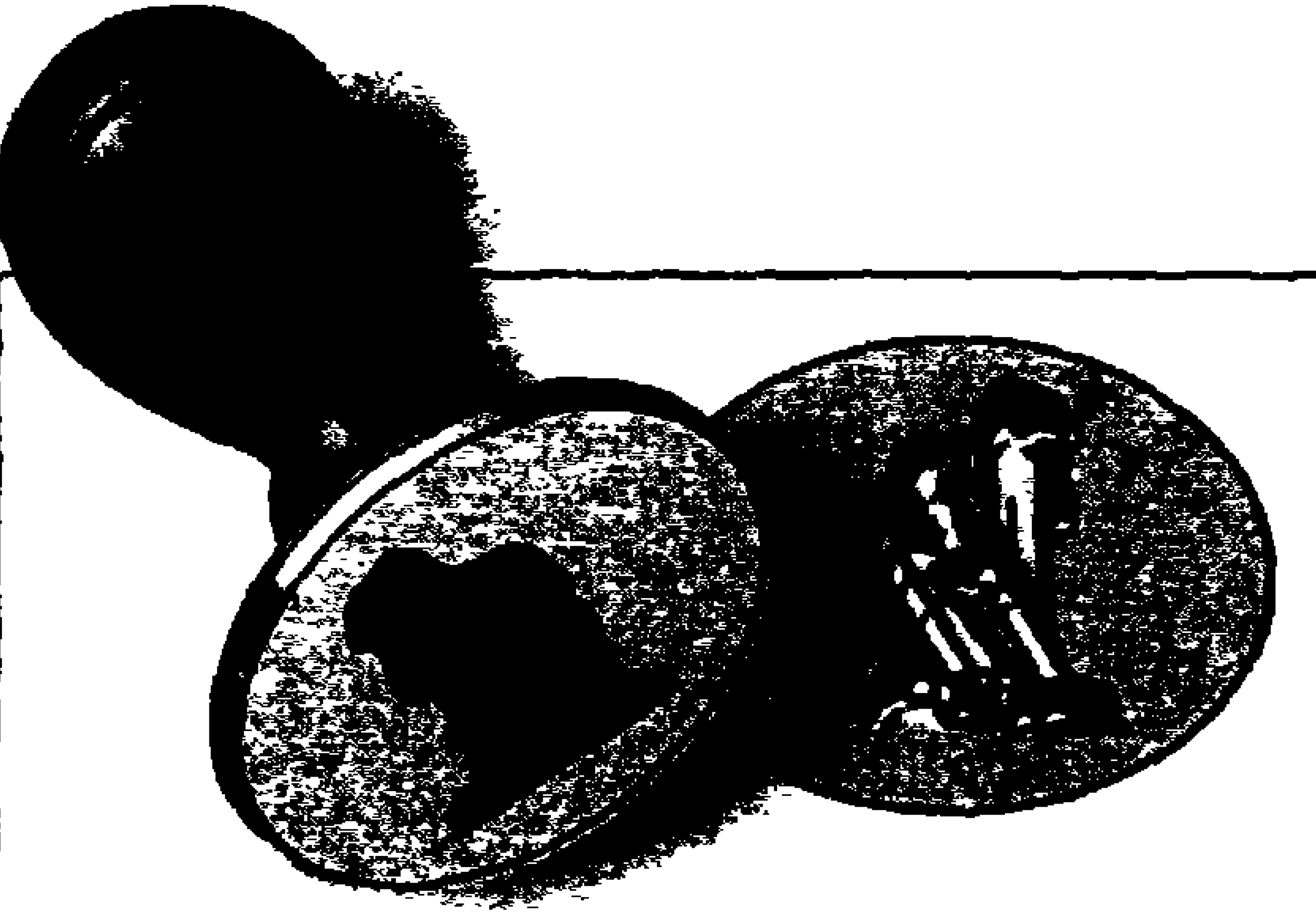
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

أنيس منصور

الناى السحرى

موتسارت

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم الكتاب	الناى السحرى (موتسارت)
اسم المؤلف	أنيس منصور .
تاريخ النشر	أبريل ١٩٩٩م .
رقم الإيداع	١٧٢٨ / ١٩٩٩م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 0902 - 6
الناشر	دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

دمعة أولى !



كنت أفضل أن يكون عنوان هذا الكتاب (موتسارت .. ذلك المجهول) .. أو (موتسارت الذى دوخنى) أو (موتسارت .. فى دمى) أو (موتسارت : فيلسوفا) .. أو (موتسارت عاشقا معشوقا) ..

أما أن موتسارت فى دمى فسبب ذلك أننى أحببته وتمنيت ، ولا أستطيع أن أكمل هذه العبارة فأقول : تمنيت أن أكون عبقريا مثله .. وإنما تمنيت فقط أن تكون عندى نعومته .. رقته .. حيويته .. إبداعه الذى يتدفق شلالا يتفجر من كل خلاياه .. طوفانا من النغم يهز الجبال .. فكيف لا يحطم إنسانا مثله صغيرا هزيلا مريضا حتى يقصف عمره فى النهاية ..

وهناك سبب آخر فعندما ذهبت إلى مدينة سالزبورج بالنمسا ، التى ولد فيها موتسارت ، كان من نصيبى أن أسكن بيتا هدمت الحرب نصفه .. وبقى نصفه الآخر دليلا على الجريمة ودليلا على الإصرار والتحدى .. وكان من حسن حظى أن أرى بيت موتسارت من النافذة كل صباح .. وربما أصعب ما واجهت فى ذلك البيت هو كيف أصل إلى صباح أى يوم .. كنت أقطع الليل الطويل أتقلب وأتوجع .. فقد كان السرير واللحاف والمخدات والسجادة على الأرض ومثلها على الحائط ملعبا للبراغيث .. وكنت أحيانا أضحك .. وشر البلية ما يضحك ، كما

يقول الشاعر . . وكانوا زمان يقولون لنا على سبيل السخرية إن المشتغلين بالفلسفة هم الذين يبحثون عن قطة سوداء فى غرفة سوداء . . ولكنى أستطيع أن أقول : إن الموقف أصعب من ذلك كثيرا . . إنه البحث عن برغوث . . ألف ألف برغوث فى غرفة مظلمة أيضا . .

وكنت أقول لنفسى أن هذه البراغيث هى أحفاد البراغيث التى امتصت دم موتسارت وتوارثت دمه . . ونقلته إلى دمى . . فدماء موتسارت تجرى فى عروقى !

ولما قرأت رسائل موتسارت إلى أبيه وأمه وأخته وإلى زوجته وإلى ابنة عمه وجدت له لفتات ذكية . . ومحاولات فلسفية . . وأهدافا إنسانية . . فتوقفت طويلا عندها . . ووجدت خيوطا ذهبية وفضية . . وخيوطا من نار وخيوطا من حرير . . وصنعت منها نسيجا عاطفيا غراميا . . إنها فلسفة ما . . لو طال العمر بالعبقرى موتسارت لقال أكثر . . ولكن لم يمهله المرض . . واستعجله الموت . . وقد كان موتسارت على سفر دائم بين المدن والدول والقصور الملكية والقصور البابوية . . فبين السادسة والسادسة عشرة من عمره ،لم يبق فى مدينة سالزبورج إلا خمسة شهور . . فكيف يتسع عمر شاب مات فى السادسة والثلاثين أبدع فيها : ٦٢٦ عملا موسيقيا من بينها ٢٢ أوبرا و ٥٠ سيمفونية و٢٢ رباعية وترية و ١٨ كونشرتو على البيانو وغيرها . .

وجمعت ما قاله المؤرخون والأصدقاء ورتبت ونظمت وحللت . .

ثم ضاعت كل هذه الأوراق . . بعد أن نقحتها وكتبتها على الآلة . . ولا أعرف كيف ولا أين ولا متى ضاعت ، بينما أنا مشغول بغيرها وبغير الموسيقار . .

وهذا الكتاب الصغير الذى بين يديك هو ما تبقى من كتاب كبير . . توقفت فيه طويلا عند الحياة المرضية لعدد من الموسيقيين العظماء : بيتهوفن وبجانينى وباخ وهندل وفيبر وروسينى وشوبرت ومندلسون وشومان وشوبان وليست وجريج ومالر ودليوس ورافل وجرشون وبارتوك وبيزيه وبورودين وبرامس وبوليوز ودبيسى ورحمانينوف وشوستاكوفتش وسيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم والسنباطى والقصبجى وزكريا أحمد وبليغ حمدى ومحمد الموجى وفريد الأطرش وعبد الحليم وفايزة أحمد . .

كل ذلك ضاع !

ضاعت ٤٥٠ صفحة من الناشر الله يسامحه . . أو فى المطبعة أو بين أوراقى التى أجمعها وأرتبها وأمزق بعضها . . فهل مزقتها كلها ؟ أشك فى ذلك . . ولكن ما جدوى اليقين من أى شىء . . لقد ضاعت هذا هو اليقين الوحيد . .

وبحثت ونقبت كثيرا وطويلا يائسا حزينا ولم يبق إلا هذه الصفحات التى كانت مقدمة لسجل طويل عريض استغرق منى ألف ليلة وليلة !!

أما (موتسارت . . ذلك المجهول) . . فقد كان عنوان الكتاب الذى ذهب . . وكنت قد اتفقت مع الصديق د . ناصر الأنصارى مدير الأوبرا على أن يتولى نشره وتوزيعه وتزويده بصور أوبرات موتسارت على المسرح المصرى . . واتفقت أيضا مع الناشر الصديق إبراهيم المعلم . . واتفقت مع الفنان حلمى التونى أن يتولى إخراج الكتاب . . ومع الفنان الشاب محمد الناصر أن يرسم صور موتسارت والأربعين عبقريا موسيقيا . . ورسمهم جميعا . وهذه الصور لقيت مصير الكتاب !!

ورويت لأول مرة ليلة غاب فيها موتسارت ، ولكن حضوره أقوى من حضورنا . . فى تلك الليلة السابقة على عرض أوبرا (الناى السحرى) لموتسارت على مسرح الأوبرا المصرية القديمة جلسنا مع كل أعضاء الفرقة الإيطالية فى فندق ميناهاوس . . ثم تقدمنا جميعا : الشاعر عبد الرحمن صدقى مدير الأوبرا والأديب صلاح ذهنى سكرتير الأوبرا . . والفنان شكرى راغب . . ومشينا إلى الهرم وإلى أبى الهول . . وكان القمر فوق والرمال الفضية تحتنا . . وكان الليل هادئا . . وكل شىء التزم الصمت احتراما لأبطال (الناى السحرى) وإجلالا لموتسارت . . وكان وكان وقيل وقيل وغنت بطلة الفرقة . . غنت بلا موسيقى . . الصوت فى حنجرتها والموسيقى فى آذاننا . . وكان موتسارت هناك فى كل مكان . . وسعدنا وانتشينا . . ذهبنا لا نعرف كيف ، وعدنا لا نعرف متى . . ليلة من أطول وأروع ليالى العمر . .

ولما علم محمد عبد الوهاب أننا حاولنا أن ندعوه فلم نجده ، عاتبنا ولم يقبل اعتذاراً من أحد . . ولكن تطوع بعضنا وقالوا : كيف يستطيع أن يمشى عبد الوهاب على الرمال . . كيف يواجه الهواء البارد . .

ولكن عبد الوهاب كان أسفه عظيما وحزنه عميقا . .

وكذلك قالت أم كلثوم . .

وكذلك ندم فريد الأطرش . .

وجاء خطاب من الفيلسوف الوجودى سارتر : يحسدنا على تلك الليلة التى ما كان أحوجه إليها ـ هكذا قال .

كل ذلك راح .. راح .. ضاع .. تحولت الصفحات إلى ريش أبيض فى جناحى طائر خرافى حلق بعيدا .. ولن يعود !

* * *

وليس أحد أشهر من الطفل المعجزة : موتسارت .. وليس أحد مجهولا مثله ..

فلقد عاش مريضا طول عمره .. كان أصفر اللون شاحبا هزيلا دميما .. كان قصير القامة (١٥٢ سنتيمترا) قصير النظر .. رافقته فى حياته القصيرة أمراض كثيرة .. اختلف الأطباء فى تشخيصها ..

فقد أصيب بالحمى ثلاث مرات فى حياته .. وظهر لها طفح جلدى أليم جعله لا يستحم شهورا ..

أصيب بالحمى القرمزية ..

وأصيب بالحمى الروماتزمية ..

وانتفخت يداه ووجنتاه .. بسبب مرض فى الكلى ..

وقيل إنه مات بالفشل الكلوى ..

وبسبب ضغطه العالى أصيب بانفجار فى المخ .. وقيل بجلطة فى القلب .. ومات فى حالة إغماء وهذيان ..

وكان مصابا بالتهاب فى المفاصل .. إذا وقف كان من الصعب عليه أن يقعد .. وإذا قعد كان من الصعب أن يقف .

وكان كبير الرأس طويل الأنف ..

أما حرصه على أن يرتدى الشعر المستعار فلكى يخفى عيبا خلقيا فى إحدى أذنيه .. فقد كانت أذنه اليسرى مفلطحة .. وقد ورث هذا التشوه الخلقى عن أبيه .. ثم إنه أورثه لابنه ـ وبعض المؤرخين يرى أن الأذن اليسرى لنفرتيتى كان به نوع من التشوه الخلقى ..

ولقد حار الأطباء مائتى سنة منذ وفاته سنة ١٧٩١ فى تشخيص مرضه .. وتشخيص سبب وفاته .. وقد عثر الأطباء على نسبة كبيرة من الزرنيخ فى جسمه كالتى وجدوها فى شعر نابليون ـ لقد مات كلاهما مسموما .. الطبيب الإنجليزى وضع السم لنابليون والموسيقار الإيطالى ساليرى وضع السم لموتسارت .. وقد ولد نابليون بعد موتسارت بثلاثة عشر عاما ..

وكل شىء فى حياة موتسارت كان سريعا خاطفا . . ولذلك كان عنده إحساس مخيف من الموت . . فكان يجرى قبل أن يلحقه الموت . . ويبدو أن الموت لم يلحق به ولذلك أقعده فى البيت حتى التزم الفراش . . وهكذا لحق به وانقض عليه . . ولكن الفن أطول عمرا من الفنان . فمات الموسيقار موتسارت . . ولكن موسيقاه لا تموت .

ولم يتسع وقت موتسارت لأى شىء آخر غير الموسيقى . . ولذلك لم يتعلم . . فهو طفل جاف خشن . . لايعرف كيف يكون مهذب السلوك مع الناس . . وهو يقول كل ما يخطر له . . تماما كما أنه يسجل على الورق كل ما يهبط عليه من روائع النغم ورفيع المعانى . . وخطابات موتسارت مليئة بالألفاظ النابية التى لا يصح أن يقولها ابن لأبيه أو لأمه أو لأخته أو لزوجته أو لبنت عمه التى أحبها كثيرا وعميقا وطويلا . .

ولذلك فى فيلم (أماديوس) البديع العميق نجد حرص المؤلف على أن يختار قزما فى دور موتسارت . . قبيح الصورة والصوت . . قبيح الكلمات والحركات . .

وفى الفيلم رأينا عدوه وخصمه والحاقد الأول عليه : ساليرى الموسيقار الإيطالى يتطلع إلى المسيح على الصليب ويقول له : كيف تضع عظمتك فى هذا المخلوق المشوه . . كيف تعطى هذا الأراجوز أروع ما أعطيت لأى إنسان . . وأنا الذى أحبك وأصلى لك وأحترمك لا تعطينى شيئا مما أعطيت لأقبح مخلوقاتك هذا الإنسان المشوه قليل الذوق قليل الأدب ؟!

ثم يلقى بالصليب وعليه المسيح فى النار !

وإذا جلس أماديوس موتسارت إلى التأليف فإنه يتدفق ولا يتوقف . . ولا يشطب كلمة واحدة . وقد يكتب عملا كبيرا فى ليلة واحدة . .

هكذا لم يكن يعرف النوم . . وإذا نام من غير وجع ومن غير سعال أو نزيف فساعتان أو ثلاث . .

ولما مات . . نقلوا جثمانه إلى الكنيسة إلى جوار عدد من الموتى فى تلك الليلة العاصفة المطيرة . . ثم جاءت عربة نقل الموتى واختفت بهم فى أحد مقابر الفقراء . . مقابر المجهولين . .

ولم يمش أحد وراء نعش موتسارت . . عبقرى زمانه وكل الأزمان . .

حتى زوجته لم تمش وراءه . .

ويقال كانا قد تشاجرا طويلا قبل ذلك . .

ويقال كانت مريضة محمومة . .

ويقال كانت عندها جلطة فى إحدى ساقيها . . ويقال إن علماء الأرصاد أثبتوا أنه يوم وفاة موتسارت لا كانت أمطار ولا كانت عواصف . .

حتى صور موتسارت كانت بأقلام أناس مجهولين . . لم نعرفهم إلا لأنهم رسموا صوره صغيرا وشابا . . حتى أقنعة الموت لم تكن كلها متشابهة . . فملامح موتسارت قبل وفاته ليست معروفة تماما . .

وكتبت زوجته كونستانسه فى سجل الوفيات . . يوم وفاته تقول : ماذا أقول لك . . ماذا أقول عنك . . لم أوهب بلاغتك ولا سرعة بديهتك . . ولا قدرتك على الكلام الجميل . . إننى اليوم أشد الناس حزنا عليك يا زوجى العزيز . . لن أنساك ولن تنساك أوروبا كلها . . أنت الآن فى سلام . . فى سلام أبدى . .

ففى الساعة الواحدة من صباح الخامس من ديسمبر من هذه السنة ذهب العزيز الغالى فى السادسة والثلاثين من عمره ـ مع الأسف . . ذهب بهذه السرعة ـ يا إلهى ما أقسى الدنيا وأكثرها عقوقا . . ثمانى سنوات عشنا زوجين يربطنا أرق وأجمل رباط لا ينقطع ولن ينقطع . . يا إلهى هل أستطيع أن ألحق به لنبقى معا إلى الأبد . .

زوجتك الحزينة :

كونستانسه موتسارت

أما أن يكون اسم الكتاب (الناى السحرى) أو (الناى الحزين) . . فهو ليس نايا واحدا ، بل ألف ألف . . إنها أبهة عظمة . . فخامة . . جمال . . جلال . .

فليكن قلمى هو الناى الحزين على ٤٥٠ صفحة جمعت فيها قسماته . . لمحاته . . نبراته . . آهاته . . تأوهاته . . وكان الأمل أن تكون باقة ورد على قبره فى الذكرى المئوية الثانية لوفاته . .

كان . . كل شىء كان . . وليست هذه الصفحات إلا بقاياه . . بقاياى أنا أيضا !

القاهرة يناير ١٩٩٩

أنيس منصور

موتسارت .. في ذكراه المئوية الثانية ...

الناى السحرى ..

لا أعرف عدد المرات التى زرت فيها مدينة سالزبورج ولا كم مرة ذهبت إلى بيت عبقرى الموسيقى موتسارت .. البيت لا يلفت العين ، ولكن كل شىء فى المدينة النمساوية الجميلة يؤكد لك أن هذه هى مدينة موتسارت .. فاسمه على كل شىء : الشيكولاته ولعب الأطفال والصور والملصقات .. وإذا دخلت أى محل فموسيقى موتسارت .. عند الحلاق مثلا تجلس وتجىء الفتاة وبرفق تقلب رأسك يمينا وشمالا وليس فى يدها سلاح .. لا تخف .. انظر إليها فى المرآة تجدها تبتسم كأنها تريد أن تتأكد إن كانت لديك أذن موسيقية تستطيع أن تنتشى بموسيقى موتسارت طوال فترة عملها هى ..

وعندما يتأكد لها ذلك تدير موسيقى موتسارت .. وإذا كنت تنظر إلى الفتاة من حين إلى حين تجد هزة خفيفة فى حنجرتها أو شفتيها أو رأسها .. إنها تتابع الموسيقى ؛ لأنها قد سمعتها ألوف المرات .. فهو أعظم طفل خلقه الله ..

إنه الطفل الذى ولد رجلا .. إنه الرجل الذى ولد عبقريا يؤلف الموسيقى قبل أن يصبح قادرا على تركيب جملة واحدة باللغة الألمانية .. إنه كان يكتب النوتة الموسيقية قبل أن يعلمه أبوه كيف يكتب اسمه . إنها إحدى معجزات الإبداع ..

فى كل حفلة موسيقية يجلس الأمير أو الملك أو الكاردينال والطبقة الأرستقراطية فى قمة الأناقة والشياكة . . والكل يتلفت فى كل الاتجاهات . . فلا أحد يعرف من أين ولا كيف يدخل هذا الطفل المعجزة ـ سبع سنوات ـ ليقود الأوركسترا الذى ينتظره وليعزف موسيقى رائعة من تأليفه . . وفجأة يتلفت الناس ويضحكون . . لقد جاء الأب متجهم الوجه . . طويلا عريضا مرفوع الرأس فهو يمسك فى يده أعظم مَنْ خلق الله فى زمانه وفى كل تاريخ الموسيقى . . إنه طفل صغير قد ارتدى ملابس الكبار ووضع باروكة على رأسه وينحنى على الأرض ليلتقط ملبسة . . أو قطعة من الورق الملون . . إن الطفل لا يعرف الموهبة الجبارة التى انفرد بها دون سائر خلق الله . . إنه لا يعرف . . والناس يندهشون كيف يؤتى الله طفلا هكذا ساذجا تلفت نظره ورقة على الأرض . . ولا يعرف عظمة النافورة الإبداعية التى تتدفق من أصابعه الصغيرة . . ثم يرفعه أبوه فوق أحد المقاعد . . ويتلفت الناس إلى الطفل . . لقد انقلبت ملامحه حادة صارمة . . وأمسك عصا المايسترو وراح يشير يمينا وشمالا لكل العازفين . . ويطلب إليهم أن يجربوا الآلات الموسيقية على مسمع منه . . ثم يطلب إلى هذا أن يشد الوتر وإلى هذا أن يتقدم قليلا إلى الأمام . . أما الباقى فهو السحر . . لا أحد سمع موسيقى كهذه . . ولا ألحانا ولا جُملا ساخنة ولا مرحا ولا خفة . . كل ذلك فى بساطة . . ويطلب الناس إلى الفرقة أن تعيد . . وأن تعيد . . ويلتفت الطفل ينحنى شكرا للسادة المستمعين . . وإنما فى ضحك من هذا الطفل الصغير ذى الأساليب الناضجة . . وفى دهشة مما يرون ويسمعون ويشعرون بالفخر والاعتزاز بأن واحدا من أبناء النمسا قد اكتملت عبقريته وهو فى السابعة من عمره . كيف ؟ إنه إرادة الله وحكمته وعظمته . .

وفى كثير من الأحيان يكون بين المشاهدين طفل آخر (١٤ سنة) يقف هو الآخر على المقعد ويصفق ويصرخ : برافو أيها العبقرى ! .

هذا الطفل العبقرى هو أمير الشعراء الألمان فى المستقبل : جيته !

فأية علاقة بين هذا الطفل وبين هذا البيت الذى يسكنه . . ولا علاقة . . البيت عادى جدا . . الباب ضيق . . السلم طويل إلى الدور الثانى . . الغرف صغيرة . . السرير صغير ومنقسم إلى نصفين بالطول . . نصف ينام فيه الموسيقار والنصف الآخر تنام فيه أخته عازفة البيانو الموهوبة . . وهى أكبر منه بتسع سنوات . وكانت ترافقه فى كل رحلاته إلى أوروبا . . أعجوبة فى العزف كما أنه هو أعجوبة فى التأليف وقيادة الأوركسترا والعزف أيضا . .

والناس يتنهدون حسدا للأب مدرس الموسيقى الذى وهبه الله معجزة ونصف معجزة . الابن هو المعجزة وأخته هى نصف المعجزة ، ولكنهم لا يعرفون أن الأب لا يستطيع أن يطعم أولاده . . فهو يتلقى الكثير من التصفيق والهدايا التافهة والقليل من الفلوس . . وهو ينحنى أدبا وشكرا على هذه العلب الذهبية التى يلقى بها المتفرجون له بعد كل حفلة . . إنها علب النشوق . . ولكن يظل الأب حزينا على أنه لا يقدر على تكاليف رحلات ابنه بين قصور الملوك والأمراء والأغنياء . . فى العواصم الأوروبية . .

فى إحدى الليالى سأل الموسيقار الصغير والده : ما معنى هذا يا أبى ؟ .

أجاب الأب : إنك أعظم موسيقار فى الدنيا . .

● ولكننا لا نجد أحسن طعام فى الدنيا . .

● سوف تجده يا ولدى . .

● متى يا أبى ؟

● عندما تكبر .

● ولكنى كبرت جدا فى سن مبكرة . . ولم يعد أمامى وقت طويل لكى أعيش . . فالذى أعمله فى هذه السن ، يفعله الآخرون فى الأربعين والخمسين . . فكأننى بلغت الخمسين عندما بلغت السابعة من عمرى . .

● أمامك سنوات كثيرة من الإبداع يا ولدى . . تستطيع أن تنام الآن ! .

أى يستطيع أن ينام دون أن يجد طعاما يأكله !

وفى إحدى حفلات الطفل موتسارت فى القصر الملكى تزحلق على الخشب اللامع فأسرعت طفلة صغيرة وأنهضته من الأرض فقبلها على خدها قائلا : عندما أكبر سوف أتزوجك ! .

ولم يكن يعلم أنها الأميرة « مارى أنطوانيت » التى ادخر لها القدر مصيرا آخر : أن تتزوج لويس السادس عشر وأن تعدمهما الثورة الفرنسية بعد ذلك !

وبقدر ما يحفظ الناس موسيقاه بسهولة جدا ، كأنهم عرفوها وعزفوها من قبل ، فإنهم نسوا أن يساعدوه على الأكل واللبس واستمرار الرحلات بين العواصم يعرض الإبداع الموسيقى !

استدعاه بابا الفاتيكان ليختبر موهبته العظيمة . . فقد قيل فى ذلك الوقت أن موتسارت يسكنه عفريت . . وأن هذا العفريت يظهر له إذا أغلق الباب عليه . . ثم يملى عليه الموسيقى . . فكان البابا يغلق عليه الغرفة لكى يؤلف شيئا جديدا . . وفجأة يفتح عليه القساوسة الباب لعلهم يرون العفريت الذى يلهمه . . وكان الطفل يفزع من ذلك . . ولم يقتنع البابا ولا رجاله بأن الطفل هو الذى يؤلف وكانوا يتصورون أن والده يكتب له . . فكانوا يقترحون عليه موضوعات جديدة ليؤلف موسيقى عنها . . ثم يطلبون من أحد القساوسة أن يختفى تحت المنضدة التى يكتب عليها الطفل .

أما الطفل فهو يجلس هادئا . . ثم يحرك أصابعه التى وضعها على جانب من المقعد . . أو يحركها فوق شفتيه . . ثم ينهض يتحرك فى الغرفة يروح ويجىء . . ويجلس ويكتب النوتة الموسيقية كاملة !

ولم يقتنع البابا . . فطلب إليه أن يستمع إلى صلوات موسيقية . . استغرقت ساعة كاملة . . وطلب الطفل أن ينفرد بنفسه وسجل النوتة الموسيقية من الذاكرة كاملة . . واندهش الطفل بعد ذلك كيف أنه أخطأ مرة واحدة . . وكان البابا قد أخفى النوتة الموسيقية لهذه الصلاة عن كل الناس حتى لا يهربها أحد إلى الطفل .

هنا فقط أدرك الجميع أنهم أمام معجزة المعجزات الموسيقية فى ذلك الزمان !

وفيما بين العاشرة والعشرين من عمره دخل أصعب مراحل الإبداع الموسيقى . . التأليف السيمفونى المعقد . . ففى هذه المرحلة لابد للمؤرخين أن يقارنوا بين هذا الذى يبدعه وبين عباقرة الموسيقى على أيامه وقبله وبعده . . وحتى اليوم . ودخل موتسارت هذه المرحلة بكل اقتدار . . وأتى بالجديد البديع الرقيق القوى الساحر . . وكانت المقارنات كلها تؤكد أنه الأعظم . . إنه أستاذ الأساتذة فى كل العصور ! .

ولكنه كان مثل أحد النيازك وهو يقترب من الأرض . . يزداد لمعانا وإبهارا قبل أن يصطدم بالأرض وينطفئ . . فقد كانت فيضانات الموسيقى تتدفق من أصابعه . . وتسابق العالم كله يحاول أن يرى النجم اللامع ، وعبقرى أوروبا الأوحد .

فما كان من الإمبراطور يوسف إلا أن أعطاه وظيفة تافهة . . حتى لا يغادر النمسا إلى أى بلد آخر . . وكان الإمبراطور يغار من هذا الطفل : فهو قد تربع على عرش الخلود بسرعة . . ولم يعد أحد يذكر النمسا وإنما موتسارت . . ولم يعد أحد يذكر الإمبراطور ولكن موتسارت . . ولا فضل للنمسا وللإمبراطور على الطفل المعجزة .

وحول الإمبراطور رجال يحقدون على الطفل . . فهم لا يسمحون بعزف موسيقاه على الأوبرا . . وهم لا يطلبون إليه أن يظهر أو يؤلف . . ثم إنهم يسرقون موسيقاه ويحاولون عزفها قبل أن يظهر هو . . ليبدو أمام الناس أنه سرقها . . وفى ذلك الوقت لم يكن هناك قانون لحماية الملكية الأدبية والفنية . . ولذلك نهبوه ! والصغير لا يملك دفاعا عن نفسه ، ولا أبوه . . ولا الإمبراطور الذى أراد أن يحطم كبرياء الطفل واعتزازه بعبقريته . . فكان يحتم على الطفل أن يجلس مع الخدم في المطبخ وأن يأكل وأن ينام معهم . وكانت للإمبراطورة حكمة حقيرة : أن يُعَلِّم الطفل كيف يبدو ذليلا متواضعا وأن يعلن للناس أنه لولا عطف الإمبراطور وعنايته ما كانت له هذه الموهبة العظيمة . . ورفض الطفل ورفض أبوه أيضا . . وقرر الاثنان الهرب سيرا على الأقدام إلى العاصمة فيينا يحاولان البحث عن مكان أكثر إنسانية ، وعن كسب يكفى لإطعام الأسرة الصغيرة !

أما راتب الطفل الشهرى فى قصر الإمبراطور فهو خمسة جنيهات فى الشهر !

وعندما بلغ موتسارت السادسة والعشرين من عمره تزوج سرا وضد رغبة والده ، وكان فى حاجة إلى مال طبعا . أما الفتاة التى تزوجها الموسيقار فولفجانج أماديوس موتسارت فهى واحدة من أربع فتيات جميلات . الفتاة اسمها كونستانسه .

وكان يدللها بإستانس . . وتدلله هى بفولفى . . وقد عاشت بعد وفاته ٥٦ عاما !

ولم تكن هى الفتاة التى أراد أن يتزوجها ، وإنما أراد أن يتزوج أختها الكبرى ، وكانت مطربة فى الأوبرا ، وكان يعجب بصوتها . . وكان ممتناً لإعجابها بموسيقاه ! مع أن الدنيا كلها تفعل ذلك وليست هى وحدها ، ولكنه طفل !

وكان فى طريقه إلى لندن ، ووعدها بأن يتزوجها عند عودته . ولما عاد من هذه الرحلة التعيسة ، وجدها قد غيرت رأيها ، لماذا ؟ تقول هى : أنه عيل ومستقبله ليس مضمونا !

وفي لندن قابل الموسيقار الألمانى العظيم هايدن ، وكان حزيناً لرؤيته فقد كان مريضاً . قال موتسارت فى ذلك الوقت : إنما أردت أن أراه لآخر مرة ؛ لأنه سوف يموت قريباً !

وفعلاً كانت آخر مرة . . ولكن الذى مات هو موتسارت عن ٣٥ عاما وليس هايدن . . الذى مات عن ٧٧ عاماً !! وأنجب موتسارت من أستانسى سبعة من الأطفال ـ مات خمسة منهم . .

وامتلأت حياتهما بالمشاكل النفسية والمادية . . وكان من الممكن أن تؤدى هذه المشاكل إلى تعويق العبقرية عن التدفق . . أو حتى عن الكتابة أو التفكير . . ولكن كان هناك اثنان اسمهما موتسارت : واحد يعيش فى داخله لا يتأثر بكل ما يحيط به . . هذا الموتسارت الداخلى فى تمام الصحة والعافية يستمد قوته من الله ، والموتسارت الخارجى يستمد قوته البدنية من الناس والظروف . . حتى عندما كان موتسارت عاجزاً عن الحركة بسبب المرض كان يطلب إلى خمسة من أصدقائه أن يجلسوا حول سريره وكان يملى كل واحد مقطوعة موسيقية مختلفة . . وإذا تعب هؤلاء الأصدقاء ظهرت زوجته تكتب ما يمليه عليها !!

وفى إحدى ليالى الشتاء الباردة فوجئ الجيران بموتسارت وزوجته يرقصان تحت الجليد ويصرخان . . وكان الناس قد اعتادوا على الصرخات « العيالى » لهذا العبقرى . . ولكنه هذه المرة لم يكن « عيلاً » . . وإنما عنده مشكلة لم يجد لها حلاً . . فلا يوجد فى بيته خشب أو وقود للتدفئة . . فنزل هو وعروسه يرقصان ليصيبا شيئاً من الدفء . . فعطف عليه الجيران وبعثوا إليه بالفحم والخشب والزيت !!

ويندهش الناس من حب المرح عند الموسيقار الشاب . . فهو ابن نكتة . . ومعظم النكت التى يؤلفها بذيئة جداً . . وكان أصدقاؤه يطلبون منه أن يرافقهم إلى الحانات . . وكان يشرب وهم يرقصون على مقطوعات موسيقية يعزفها على البيانو . . يرتجلها . . وكان ينظم شعراً مناسباً . . وهو يؤلف ويغنى ويرقص والكل يردد وراءه . . ثم ينسون أن يقدموا إليه طعاماً . وكان يقول : إن الشمس لا تأكل . . مع إنه من غيرها فلا طعام ولا شراب . . والشموع تضىء ولا تشرب ولا تأكل . . ولكنها تفعل ذلك حتى تموت ليعيش الناس . . ولكن أحداً لا ينسى كلبه أن يأكل وأن يتغطى حتى لا يموت من البرد . . هاها . . أنا الشمس التى تضىء الكون ولا تجد طعام الكلاب . . هاها !!

* * *

فى آخر أيامه ألف أوبرا « الناى السحرى » أرق وأروع ما أبدع الموسيقار العظيم . . ولم يستطع أن يذهب إلى الأوبرا ليقود الفرقة الموسيقية . . ولا حتى أن يتفرج ويسمع . . ولذلك كان فى فراش المرض ينظر إلى ساعته ويقول : الآن ينفتح الستار . . والآن يتحرك الناس فى صمت . . ثم ينطلق الناى السحرى سر الوجود . . كأنه الضوء الذى يكشف المخلوقات التى اختبأت فى

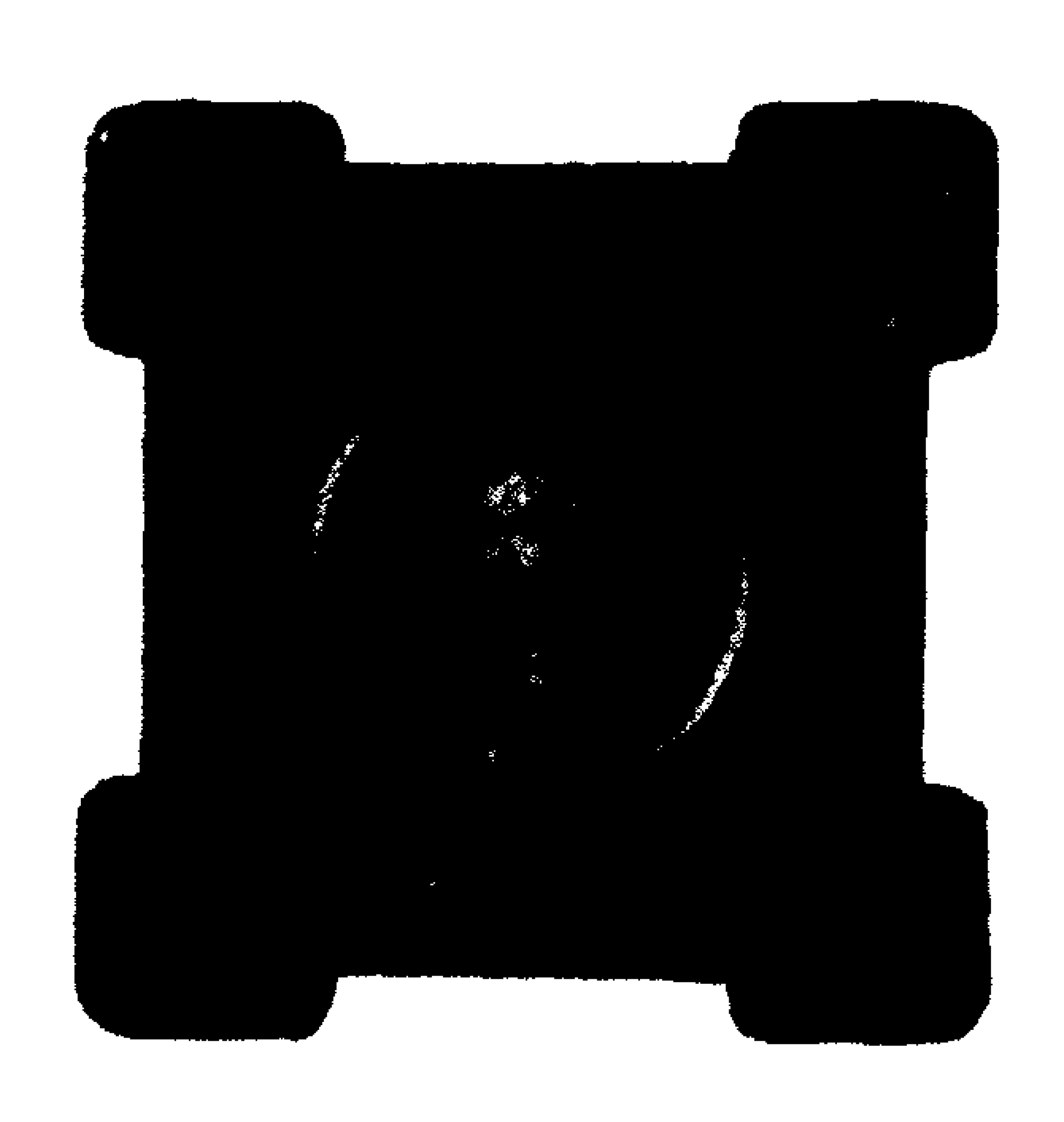
الظلال والظلام والضباب . . إنها الموسيقى مصدر الوجود . . كما أن الشمس مصدر النور والدفء . . فالموسيقى تبعث المعانى والأعماق . . وبغيرها لا حياة ولا وجود . . ولا خلود .

وفى أيامه الأخيرة أغرقته الديون الكثيرة . . وكان الناس يتهجمون على البيت يخطفون المقاعد والمناضد سداداً لديونه . . وفى آخر مرة تأثروا لمنظر العبقرى ممدداً على السرير وهو الشىء الذى تبقى له . . فكادوا يلقون به وينطلقون بالسرير . . عندما جاء شخص مجهول يعلن أنه سوف يسدد ديونه . وسددها . أما المقابل فهو أن يؤلف له الموسيقار مقطوعة موسيقية لعزفها أثناء جنازة أحد العظماء . ولم يشأ أن يقول له من هو الفقيد العظيم . وكان موتسارت يستدعى أصدقاءه ليكتبوا النوتة الموسيقية للحن الجنائزى . وقد اعتاد موتسارت أن يبيع ألحانا لهذا الرجل المجهول الذى كان يوفده أحد الموسيقيين ليستولى على موسيقى موتسارت على أنها من تأليفه هو !!!

* * *

وأروع الأعمال السيمفونية لعبقرى الموسيقى موتسارت ، قد ظهرت بعد وفاته . . موسيقى للغرفة . . وألحان للعزف المنفرد وسيمفونيات وأغنيات ورقصات . عاشت لتنعم بها زوجته التى تعذبت كثيراً وطويلاً معه !

ولا يزال المؤرخون يجهلون سراً فى حياتهما الزوجية . . فعندما مات موتسارت كان يوماً عاصفاً . . فلم يمش فى جنازته إلا خمسة من أصدقائه . . ولم تكن من بين الخمسة زوجته !



أطفال عظماء !



هناك نظرية تقول : كل ما لا يحدث فى الطفولة ، فلا أهمية له . . سواء كان الذى حدث مؤلما أو مفرحا . .

أى أن كل الذى يغرس فى الطفولة ينمو فى الشباب والرجولة . . أو كل الذى يصيبنا فى الطفولة ، يبقى أثره بعد ذلك .

فأوجاع الطفولة كالنقش على الحجر ، وآلام الرجولة كالنقش على الماء . . ولذلك فعلماء النفس يطلبون إلى كل موجوع أن يتمدد على مقعد مريح وأن يستسلم لتداعى الأحداث . . وأن يعود إلى طفولته . . وأن يستوقف هذه الطفولة . . وأن يستسلم لكل ما يدور فى داخله . . ثم يحكى للطبيب .

وفى هذه الحكايات يرى الطبيب كل ما حدث وحاول الإنسان المريض أن يتخلص منه . . أو يتستر عليه . . فالكلمة الموجعة التى سمعناها صغارا قد رددناها عندما كبرنا ألف كلمة وكلمة لغيرنا من الناس . . مع أن الذى شتمنا ونحن صغار ليس هو الذى شتمناه ونحن كبار ، ولكنه حساب قديم تجب تصفيته . .

والأطفال يختلفون فى رد فعلهم على آلام الطفولة . . فبعض هذه الآلام تكون نقطة تحول . . أو تكون سببا لتحدى الطفولة والظروف والقدر . . وبعض المواهب تظهر فى الطفولة . . وبعضها يبقى طويلا . . وبعضها لا يبقى كثيرا . . وكأن إرادة

الله شاءت أن الموهوبين صغارا يموتون صغارا أيضا . . كأنه مصباح استنفد كل ما لديه من طاقة وبإسراف فانطفأ مبكرا . . وبعض الصغار تظهر مواهبهم متأخرة . . وكأنها مياه جوفية مشت تحت الأرض كثيراً وطويلاً ثم تفجرت مرة واحدة . . متى وكيف ولماذا ؟ فلا أحد يعرف ذلك . . فالعبقرى أينشتين كان طفلا بليدا وكان لا يحسن الكلام . . عاجزا عن النطق إلا فى سن متأخرة جدا . . ولكن عندما كبر فقد وسع عقله الكون كله . . واكتشف نظرية النسبية التى تربط بين كل ما فى الكون فى معادلة لا تزيد على سطر واحد !

وليست عندنا ـ نحن العرب ـ سجلات معروفة لأحوال عظمائنا وهم أطفال . . فلا نعرف كيف كانت الطفولة . . طفولة الإنسان العظيم أو طفولة والديه . . أو ما الذى حدث له ، وما الذى غير مساره الفكرى أو السياسى أو الأدبى . . ولكن لدى الأوروبيين والأمريكان سجلات لهم وهم فى بطون أمهاتهم !

(١)

فعندما كان الأديب الإنجليزى والتر سكوت فى السنة الأولى من عمره أصيب بشلل الأطفال فى إحدى ساقيه . . ومن يومها وهو يمضى وقته جالسا أو نائما تحت الأشجار وكان يقول : إن منظر السماء وأنا راقد على الأرض لشىء باهر . . كيف ينشغل عنها الناس ويوارون وجوههم فى الأرض !

والأديب الروسى تولستوى ماتت أمه وهو فى السنة الأولى من عمره . . ومات أبوه وهو فى الثانية . . وتمزقت الأسرة وتطلع تولستوى العظيم إلى من الذى سوف يتولى تربيته . . خاله هو الذى رباه ، فقد عرف اليتم صغيرا . واستبدل بأسرته الصغيرة كل الأسرة الإنسانية .

والملاكم العالمى ملك الملوك محمد على كلاى وهو فى السنة الأولى ضرب أمه فى فمها بقوة فأسقط ثلاثا من أسنانها . وتنبأت له العرافة بأنه سوف يكون قاطع طريق !

(٢)

وتقول أساطير الإغريق : إن هرقل عندما بلغ الثانية ، أمسك ثعبانين بيد واحدة وقتلهما . .

ويقول الراهب العظيم بوذا : إنه شعر بنشوة التسامى على كل شىء لأول مرة . . أما الدلاى لاما فإن الرهبان يختارونه طفلا فى الثانية من عمره ثم يدربونه على

حياة الرهبنة ويلقنونه كيف يكون نصف إله . . وعندما يبلغ الثانية والعشرين من عمره فإنه يختفى ولا يظهر بعد ذلك . . يقتلونه يخنقونه . . يدفنونه حيا . لا أحد يعرف . ولما قابلت الدلاى لاما فى قمة جبال الهملايا سنة ١٩٥٩ وقلت له ذلك . فغضب جدا . . وقال : إنها شائعات كاذبة . . وأشار بيده إلى أنه لم يمت !

وهو فعلا لم يمت لأنه هرب من بلاده . . ولو بقى شهرا واحدا بعد ذلك لدفنوه حيا فى الأرض . . فقد فعلوا ذلك مع عشرات من قبله . فكما جاء طفلا مجهولا ، فيجب أن يختفى شابا مجهولا أيضا !

(٣)

الفيلسوف الإنجليزى جون استورات ميل كان يقرأ باللاتينية واليونانية وهو فى الثالثة من عمره ، وفى السابعة بدأ يقرأ الفلسفة اليونانية . . وقد كان أبوه فيلسوفا أيضا . . وهو الذى دربه على القراءة وعلى التفكير !

والفيلسوف الإنجليزى العظيم برتراند رسل ماتت أمه وهو فى الثالثة ، ومات أبوه أيضا . فذهب يعيش مع جده لورد رسل . يقول رسل : من الصعب أن تكون يتيما وتبقى سعيدا . . إن اليتيم فى حاجة إلى نظريات يأوى إليها مثل قلعة حصينة ومن خلالها ينظر إلى الدنيا !

(٤)

لويس الرابع عشر نصبوه ملكا على فرنسا وهو فى الرابعة من عمره . . ثم هربوه من باريس خوفا عليه من المظاهرات .

عازف البيانو العالمى إسحق برلمان فقد ساقيه وهو فى الرابعة ، ولكنه صار من أعظم العازفين !

قال برلمان : لقد نبتت لى فى يدى ساقان . . فقد كنت أمشى على يدى أيضا !

(٥)

فى هذه السن ظهرت عبقرية (فولفجانج أماديوس موتسارت) . فهو لم يذهب إلى مدرسة . فقد كان أبوه هو المدرسة . وأبوه كان عازفا ومؤلفا موسيقيا لكتب عن الموسيقى والعزف - من أحسن الكتب فى ذلك الوقت . وفى هذه السن المبكرة بدأ موتسارت يؤلف موسيقاه هو ويعزفها .

فكان أعظم العازفين ومعجزة المؤلفين . وظهرت عبقريته مرة واحدة وبلا مقدمات .

فهو لا يعرف ما الذى يتدفق منه .. إنه إذا أكل أو شرب فهو طفل . وإذا نزل إلى الشارع فهو طفل ينحنى على الأرض يقلب فى ظلطة .. ولكن إذا جلس إلى البيانو تغيرت ملامحه تماما .. ولو انفجرت إلى جواره قنبلة فإنه لا يشعر بها .. وكانت أخته الكبرى تعضه فى كتفه فلا يشعر بها .. أو تضع عودا خشبيا مشتعلا أمام عينيه فكان لا يراه ولا يشعر به .. وكان أبوه يعرف أن هذه هى لحظات الإبداع ، كأنه رجل فى الستين أو السبعين .. أو كأن كل تاريخ الموسيقى قد احتشد فى طفل صغير .

وفى هذه السن أيضا ظهر شارلى شابلن على المسرح مع والده سنة ١٨٩٤ . ومات أبوه بعد ذلك . وذهبوا به إلى أحد ملاجئ الأيتام ومعه أخ غير شقيق .. فقد رفضت أمه حضانته .. هذه هى البداية الحزينة لرجل أضحك الدنيا .. فكان شارلى شابلن رائد « الضحك الأسود » .. أو الضحك الذى يجعلك تبكى أو البكاء الذى يضحكك .. أو كان الممثل الذى يوجعك ويضحكك فى لحظة واحدة ـ كالذى يدغدغك بسكين .. أو الذى يضحكك بغاز الأعصاب المسيل للدموع أيضا !

(٦)

الفيلسوف الفرنسى مونتنى كان يقرأ باللاتينية فى السادسة ..

وعبقرى الموسيقى موتسارت بدأ جولاته فى أوروبا مع أخته (نانرل) التى تكبره بتسع سنوات .. وهى عازفة فائقة البراعة .

وفى هذه السن دخل الأديب الأيرلندى جيمس جويس أحد الأديرة .

وفى هذه السن ظهرت الممثلة الطفلة المعجزة شيرلى تمبل فى أحد الأفلام سنة ١٩٣٤ وحصلت على جائزة الأوسكار !

أما بطلة أبطال الجمباز نادية كومانتشى فقد بدأت تتدرب لكى تصبح أعظم بطلة فى الدنيا وهى فى الخامسة عشرة من عمرها .

(٧)

الموسيقى البولندى شوبان استهل أعماله الرائعة بموسيقى البولونير سنة ١٨١٧ .. وأقام أولى حفلاته الموسيقية العامة ..

وإن كان قد دخل معهد الموسيقى فى العاصمة وارسو بعد ذلك بعشر سنوات !

وفى هذه السن كان الممثل أورسون ولز قد حفظ مسرحية « الملك لير » لشيكسبير ويمثلها كلها لنفسه .. ثم فى الحفلات العامة !

(٨)

الفيلسوف الفرنسي ديكارت أدخلوه أحد الأديرة . . وفى الدير انفرد بنفسه وبالكون يتأمل ويسجل أفكاره الواضحة فى سهولة وبراعة !

أما الأديب الروسى جوركى فقد هرب من المدرسة . ولم يعد . وفى الرابعة والثلاثين من عمره ألّف رواية « الحفيد » .

وفى يوم سأل موتسارت والده : ولماذا لا ينام الأولاد والبنات فى سرير واحد ؟!

(٩)

فى التاسعة من العمر مات والد جنكيز خان مسموما فى سنة ١١٧١ . . فقرر الطفل أن ينتقم وراح يجمع الإرهابيين والسفاحين ويدربهم . . وعندما بلغ الرابعة والعشرين قام بالاستيلاء على دولة المغول . . واستولى على الصين وهو فى الخمسين من عمره !

الموسيقار العظيم باخ مات أبوه سنة ١٦٩٥ . وماتت أمه بعد ذلك بسنة واحدة ، والموسيقار باخ يعتبر من علماء وعظماء الموسيقى ، ولكنه ليس عبقريا . فالعبقرى هو موتسارت .

فى هذه السن كان موتسارت فى لندن سنة ١٧٦٤ . وقد نشرت له أعمال موسيقية باهرة . وقد أهداها موتسارت لشارلوت ملكة إنجلترا . وكانت فى العشرين من عمرها فدفعت الملكة لوالده خمسين جنيها !

وألف موتسارت أولى سيمفونياته .

والموسيقار مندلسون أقام حفلة عامة . . وقد ساعد مندلسون على الظهور أنه من عائلة يهودية غنية ، ولها علاقات كثيرة مع أغنياء العالم . فلم تكن له مشكلة من أى نوع . .

بدأت الأديبة فرجينيا وولف أعمالها الأدبية عن الشارع الذى تعيش فيه . . مارلين مونرو أجمل جميلات الدنيا أدخلوها أحد الملاجئ عندما أدخلوا أمها مستشفى الأمراض العقلية . بقيت مارلين مونرو سنتين فى الملجأ حتى سنة ١٩٣٥ . . أما أبوها فلا يعرف أحد من هو ؟! . .

وفى هذه السن اكتشفت أسرة المطربة الإنجليزية العظيمة جولى أندروز سنة ١٩٤٤ أن لابنتهم صوتا جميلا . . فقد كانت تغنى أثناء الغارات الجوية على لندن . . وكانت تحول الأغنية العاطفية إلى أغنية وطنية ، والوطنية إلى عاطفية بسهولة وجمال .

(١٠)

فى العاشرة من عمره كان موتسارت فى مدينة لوزان بسويسرا ، وقد نشرت إحدى الصحف هذا المقال القصير عن عقليته الموسيقية : (فى هذا الطفل حساسية ورقة ودقة لدرجة أن أى صوت مرتفع يزعجه فتمتلئ عيناه بالدموع !

ولا خوف من هذا النضج المبكر أن يأتيه بشيخوخة سريعة . لا خوف . فعبقرية الطفل منفصلة تماما عن طعامه وشرابه وعن ضعفه الجسمى . . لا خوف) .

قال أمير الشعراء الألمان جيته عن موتسارت الصغير : هذه الموسيقى وهذه الموهبة العظيمة التى فى داخل الطفل ليست فى حاجة إلى أن تكون تجربة فى الحياة . . فالموسيقى تتدفق فيه دون تدخل منه تماما . . فنحن نقول : إن فلانا نظره ستة على ستة ، وليس سبب ذلك كثرة النظر إلى الأشياء !

الموسيقار الفرنسى دبيسى دخل معهد الموسيقى فى باريس . وكان طفلا شديد القلق والعزلة . لم يعرف الأمان فى حياته . فبعد وفاة أمه احتضنته خالته . . وكانت تقول له : كأنك ابنى .

وكان يقول لها : كأنك أمى . . وكأن هذا البيت بيتى . . وكأننى حى !

أم شارلى شابلن دخلت مستشفى الأمراض العقلية . .

والمكتشف الإنجليزى لفنجنسون كان يعمل فى أحد مصانع الغزل والنسيج . . ولكن لم يصبح مكتشفا عالميا إلا بعد ذلك بخمسين عاما !

(١١)

أما عملاق الموسيقى بيتهوفن فكان يعمل عازفا للأرغن فى القصر الملكى ، وبدون أجر سنة ١٨٢٠ .

أبوه هو الذى علمه الموسيقى . . أراد أبوه أن يكون مثل والد موتسارت . وبيتهوفن موهبة موسيقية عظيمة جدا ، ولكنه ليس عبقريا . فليس طفلا معجزة . أما أبوه فكان مخمورا دائما . وطفولة بتهوفن تعيسة جدا . أمه ماتت وهو فى السادسة عشرة . وأبوه مات بعدها بشهور . والموسيقار فرنس ليست أقيمت أولى حفلاته فى فيينا . . وأثناء قيادته للأوركسترا ، اقترب منه رجل فى الخمسين من عمره . وانتظره حتى يفرغ من قيادة الأوركسترا ثم قبله واحتضنه ـ لقد كان بيتهوفن !

أما المؤلف المسرحى موليير فقد ماتت أمه . وأبوه تزوج وزوجة أبيه ماتت بعد ذلك بثلاث سنوات . فكان يسأل والده : هل جاء دورنا . . إما أن تموت أنت أو أموت أنا !

(١٢)

فى الثانية عشرة حضر هتلر أول أوبرا للموسيقار العظيم فاجنر فى مسرح مدينة لنتس التى ولد فيها . . وبعد عام مات أبوه . وبعد أربعة أعوام ماتت أمه . ثم حاول هتلر أن يدخل أكاديمية فيينا للمرة الثانية ، ولكنهم رفضوه لضعف مستواه . .

وعندما بلغ العشرين كان صعلوكا فى شوارع فيينا ينام على جانب من الأرصفة أو إلى جوار أعمدة النور . . وعندما بلغ الرابعة والعشرين رفضوا تجنيده لضعف صحته . . فسافر إلى ميونخ يعيش على بيع اللوحات التى رسمها .

ثم قبلوه متطوعا فى الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى . . وانتهت الحرب وهو برتبة مساعد . .

وفى هذه السن رسب تشرشل فى امتحان القبول فقد كان تلميذا بليدا .

أما أديسون أعظم المخترعين الأمريكان فكان يبيع الصحف فى القطار . . ثم استعان بطفلين آخرين يبيعان له الصحف .

وفى الخامسة عشرة عمل موظفا بأحد مكاتب البريد والبرقيات . .

وفى هذا المكتب ظهرت عبقريته فى الاختراع . فقام بتطوير أجهزة البرقيات . . وقد اخترع أديسون أكثر من ٢٢٠ جهازا جديدا !

أما الأديب الساحر مارك توين فمازال هاربا من المدرسة . و عمل بحارا على إحدى السفن وعمل صحفيا أيضا . .

(١٣)

الفيلسوف الفرنسى جان ـ جاك روسو مايزال يعمل فى صناعة التماثيل من الحجر . . وكان يعد نفسه ليصبح مثالا ـ لا فيلسوفا ولا أديبا . .

ولكن طفولته كانت هادئة . وما كتبه بعد ذلك عن الطفولة فى كتابه « أميل » هو صدى لما أحس به وهو طفل . فهو مؤمن بأن الطفل يجب أن يكون حرا . . وهو يرى أن الإنسان يولد طيبا ، ثم إن الظروف والحياة هى التى تجعله شريرا بعد ذلك . . فالمجتمع هو الذى يفسد الطفل . .

والفنان الإيطالى العظيم ميكلونجلو كان يتدرب على النحت . وقد اشتبك مع فنان آخر فى خناقة فكسر له أنفه . وفى السابعة عشرة من عمره صنع تمثالا «للسيدة والسلام» .

وقد ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ..

وصنع تحفة النحت فى كل العصور تمثال « الرحمة » للسيدة العذراء وهى تحمل ابنها السيد المسيح . وهو التمثال الوحيد الذى وقع عليه بإمضائه . ولو لم يفعل لعرفناه !

والرسام الفرنسى رنوار كان يتدرب فى إحدى ورش الخزف ..

والرسام الفرنسى تولوزر لوتريك كان فى جولة فانكسرت إحدى ساقيه .. ثم انكسرت ساقه الأخرى بعد شهور ؛ فظل طوال حياته معوقا قزما ..

ثم توفى فى السابعة والثلاثين !

وتسلم عبقرى الموسيقى موتسارت وسام الفارس الذهبى من البابا سنة ١٧٦٩ .. وبلغت الصفحات التى ألفها فى ذلك الوقت ٥٥٨ من الموسيقى البديعة ..

والموسيقار الألمانى شومان ألف أول أعماله الخالدة .. أما الأديب الإنجليزى هـ . ج . ولز فكان يتدرب فى دكان ترزى .

القيصر إيفان الرهيب قد استولى على السلطة فى روسيا سنة ١٥٤٤ ..

وفى هذه السن دخل ستالين مدرسة اللاهوت ثم هرب منها بعد خمس سنوات وعمل موظفا فى مصلحة المساحة .. وكان من مصادر الشغب فى العشرين .. ثم قام بأول مظاهرة فى سن الواحدة والعشرين .

والشاعر اللبنانى خليل جبران بدأ يفكر فى كتابه « النبى » ثم أكمله بعد ذلك بربع قرن !

وكانت جولييت (١٤ سنة) عندما أحبت روميو (١٦ سنة) وعندما ظهرت مسرحية (روميو وجولييت) سنة ١٥٩٥ كان شيكسبير فى الثلاثين .

وعمل شارلى شابلن ساعى بريد .

(١٥)

الملكة كاترين العظمى تزوجت القيصر بطرس الثالث وعمره ١٦ سنة ..

وبرنارد شو الكاتب الساخر كان يعمل موظفا فى أحد مكاتب بيع الأراضى . فشل فى الدراسة تماما . . وكان يكره المدرسين ويكره مادة الرياضة . وكان يحتقر المدرسة . .

(١٦)

الفتاة جان دارك عرضت خدماتها على ملك فرنسا السابع ١٤٢٨ ، لكى تحارب الإنجليز الذين احتلوا بلادها . . فألقى الإنجليز القبض عليها وأحرقوها وعمرها ١٩ سنة .

أما عبقرى الموسيقى موتسارت فقد ألف ثمانى سيمفونيات وأوبرا . .

(١٧)

الموسيقار مندلسون ألف افتتاحية « حلم ليلة صيف » أما شاعر الإمبراطورية كبلنج فقد سافر إلى الهند صحفيا ، وبقى فيها سبع سنوات . . والشاعر الإنجليزى تنيسون نشر باكورة إبداعه الشعرى سنة ١٨٢٦ .

(١٨)

فى الثامنة عشرة مات الملك توت عنخ آمون (١٣٥٢ ق .م) وكان حاكما على مصر وهو فى الخامسة من عمره . أصبح محمد الثانى سلطانا على تركيا (١٤٥١) بعد وفاة أبيه . .

الموسيقار الألمانى شوبرت أصبحت له أعمال موسيقية بلغت الثمانين فى سنة واحدة !

والموسيقار الإيطالى فردى رفضوا قبوله فى معهد الموسيقى لأنه غير لائق فنيا ، وقد دفع له أحد الأغنياء مصاريف الدراسة فى المعهد الموسيقى بمدينة ميلانو . . ثم توالت إبداعاته الفنية . تزوج ومات ولداه وزوجته وهو فى العشرين !

قال تولستوى : كل العباقرة يثورون على المدرسة والمدرسين والكتب المدرسية فهم يؤمنون بأنهم مختلفون عن بقية الناس ، ولذلك يجب أن يتم تعليمهم بطرق مختلفة . . أو يعتمدوا هم على أنفسهم !

(١٩)

ظهرت إحدى سيمفونيات فاجنر . . وكان نجاحها ساحقا .

الموسيقار يوهان اشراوس أنشأ لنفسه سنة ١٨٤٤ أوركسترا ينافس والده أشراوس الكبير ملك الفالس . . مات الأب فى الأربعين . . والابن هو الذى ألف موسيقى : الدانوب الأزرق .

توسكانينى أصبح قائدا للأوركسترا الذى عزف أوبرا (عايدة) ١٨٨٦ . . وكان يقود الأوركسترا من الذاكرة !

(٢٠)

فى العشرين من عمره أصبح الإسكندر (٣٣٦ ق .م) ملكا على مقدونيا . والإسكندر هو أعظم القادة العسكريين فى كل العصور . .

المخترع الإيطالى ماركونى أقام أولى تجاربه على نقل الصوت بالراديو . .

أما صانعة أدوات التجميل هيلين روبنشتين فقد هاجرت إلى أستراليا وأكملت صناعة الكريمات التى اخترعتها أمها . .

أعلن بيتهوفن : فى هذه السن بدأت أيام شبابى . . الموسيقار برامز قرأ مقالا عنه كتبه الموسيقار شوبان : (آمنت دائما بأنه يجىء يوم يظهر فيه إنسان مثالى فى الشكل الفنى ، وأنه سوف يجسد لنا السمو والجمال . . واحد سوف يعبر عن الأستاذية والتطور الموسيقى الهائل . . واحد فريد فى نوعه . . يشبه الإلهة أثينا التى خرجت من عقل كبير الآلهة زيوس . . هذا الشخص قد جاء . . قد ظهر كامل الأوصاف . . تعالوا لكى ننحنى جميعا أمام عظمته !) .

وبعدها بقليل دخل شوبان مستشفى الأمراض العقلية . . فى هذه السن رفض الناشرون طبع قصائد الشاعر الإنجليزى شيلى . . فما كان منه إلا أن وضع هذه القصائد فى زجاجة وسدها ، ثم ألقى بها فى البحر ! .

أما أسباب الرفض فهو أن الشاعر ملحد يهاجم الأديان جميعا .

الروائى الفرنسى العظيم بلزاك ، وافق والداه على مساعدته ماديا لمدة سنتين فقط . . وكان عليه أن يجد لنفسه مصدرا آخر للحياة !

الشاعر الفرنسى رامبو أنهى حياته الفنية فى هذه السن . فقد صدرت له أروع القصائد . وتوقف نهائيا عن التأليف ، ثم سافر إلى أفريقيا . . وبعد أن سمع أنه أصبح مشهورا فى بلاده ، عاد إلى باريس ليموت وعمره ٣٧ عاما .

الروائى الشاعر الروسى باسترناك الحائز على جائزة نوبل ، رافق والده المصور لكى يلتقط صورة لتولستوى وهو ميت .

(٢١)

وفى الواحدة والعشرين كانت السيدة مرجريت تاتشر موظفة فى إحدى شركات البلاستيك ، وحصلت على الماجستير فى الكيمياء .

أقيمت للموسيقار شوبان أول حفلاته الموسيقية فى باريس . .

(٢٢)

وفى الثانية والعشرين سافر العالم البريطانى العظيم دارون على ظهر إحدى السفن إلى أمريكا الجنوبية ليساعد فى رسم الخرائط وجمع العينات النباتية والحيوانية . . وبعد سبع سنوات عاد دارون لينشر نظرية التطور الطبيعى والبقاء لأصلح الكائنات .

ورفضت أكاديمية الفنون قبول الرسام الفرنسى الكبير سيزان لضعف مستواه الفنى !

قال الفنان الهولندى الكبير فان جوخ : فى داخل كل إنسان شاعر . . هذا الشاعر يموت صغيرا ، ثم يبقى الإنسان بعد ذلك !

كان موتسارت فى باريس يقود الأوركسترا التى تعزف له (سيمفونية باريس) . وماتت أمه . فعاد إلى النمسا بسرعة حزينا عليها .

وسافر الأديب الأمريكى همجواى الحائز على جائزة نوبل فى الأدب ليعمل صحفيا فى باريس .

(٢٣)

سقطت تفاحة فوق دماغ العالم العظيم نيوتن - أكبر العقول التى خلقها الله - فاكتشف كل قوانين حركة الأجسام والجاذبية . وكان يعمل بعيدا عن الأضواء . . ثم اختاروه أستاذا للرياضيات فى جامعة كامبريدج .

يقول نيوتن : فى هذه المرحلة من عمرى دربت نفسى تدريبا طويلا على النوم بعمق . .

الموسيقار الإيطالى روسينى ظهرت له أوبرا « حلاق أشبيلية » . . وكان أبواه عازفين فقيرين . قال له أبوه : أن تكون مثلى فسوف تموت جوعا ، لابد أن تكون أعظم لنعيش جميعا على سمعتك !

الموسيقار الروسى تشايكوفسكى استقال من وظيفته ليتعلم فى معهد الموسيقى . .

الأديب تولستوى خرج من الجيش . وبعد شفائه من مرض الزهرى بدأ يكتب

كتابه البديع عن « الطفولة » . استطاع الممثل أورسون ولز أن يفزع أمريكا كلها عندما أذاع مسلسلا عن قدوم أهل المريخ إلى الأرض . . لقد بلغ من تأثير هذا المسلسل أن هرب الأمريكان إلى الجبال والبحار خوفا من غزو سكان المريخ للأرض - كان ذلك سنة ١٩٣٨ .

(٢٤)

نابليون أفلح فى إخماد مظاهرة عنيفة مما أدى إلى نجاح الثورة الفرنسية . .

أمير الشعراء الألمان جيته ألف رواية « آلام الفتى فرتر » التى كانت عميقة الأثر فى أوروبا وأدت إلى انتشار موجة عاتية من الانتحار بين الشبان . .

حصل الموسيقار الروسى يرودين على الدكتوراه فى الكيمياء . وأصبح أستاذا فى الجامعة . أما شهرته العالية فجاءت من أعمال موسيقية قليلة ولكنها رائعة . .

(٢٥)

فى هذه السن أصدر الفيلسوف الإنجليزى بركلى كتابه الشهير « بحث فى مبادئ المعرفة الإنسانية » .

المفكر الشيوعى الألمانى أنجلز أصدر كتابه عن الطبقة العاملة فى إنجلترا . .

عالم النفس الكبير كارل يونج تخرج فى كلية الطب .

الموسيقار الألمانى هاندل هاجر إلى لندن وأقام فيها حتى الموت . .

ازدادت الخناقات بين موتسارت ووالده . فقد تزوج سرا . وكان مسرفا يستدين من كل الناس . .

(٢٦)

الطبيب الألمانى تيودور بلهارس اكتشف دودة البلهارسيا ، وتوفى بالتيفود فى الخامسة والثلاثين من عمره .

الموسيقار الإيطالى ماسكانى ترك دراسة القانون وتفرغ للموسيقى . وكانت أوبرا « الفروسية الريفية » ذات الفصل الواحد أروع أعماله جميعا .

(٢٧)

المؤرخ البريطانى العظيم جيبون قرر عند زيارته لروما أن يكتب عن « قيام وسقوط الإمبراطورية الرومانية » - فكان أروع وأمتع ما كتب مؤرخ فى أى عصر . .

الأخوان الألمانيان جريم أصدرا مجموعة من القصص الخرافية .

أصدر الأديب الروسى جوجول رواية « المفتش العام » .

تقرر إعدام الروائى الروسى دستوفيسكى ثم عدلوا عن هذا الحكم .. أرسلوه إلى سجون سيبيريا ..

الموسيقار فاجنر ألف أوبرا « الهولندى الطائر » ..

الشاعر شيلى مات غرقا فى البحر ..

وعندما عثروا على جثمانه وجدوا معه ديوان الشاعر كيتس .. ونقلوا جثمانه إلى الشاطئ ، وكان الشاعر لورد بيرون أحد الشهود ، ونقل رفاته إلى روما . ودفن إلى جوار الشاعر كيتس .. وقد انتحرت زوجته الأولى غرقا وكذلك زوجة أخيه !

(٢٨)

أبدع موتسارت أوبرا « زواج فيجارو » .. وكانت الفرقة الموسيقية تعيد الكثير من الألحان بناء على طلب الجمهور حتى طالت ساعة بعد ساعة ..

أديب الأطفال هانس أندرسن قد أصدر الجزء الأول من قصصه الخرافية ..

ظهرت للمؤلف المسرحى الفرنسى كورنى مسرحية « السيد » ..

وللمؤلف المسرحى النرويجى سترند برج ظهرت مسرحية « الفرقة الحمراء » .

(٢٩)

مات الموسيقار شوبرت .

(٣٠)

فى هذه السن - ٣٢ سنة - وضع الرومان السيد المسيح على الصليب ..

وكتب موتسارت آخر ثلاث سيمفونيات فى ستة أسابيع ! وألف بيتهوفن السيمفونية الثالثة واسمها « البطولية » وأصبح تشرشل وزيرا لأول مرة .

(٣١)

أصدر المؤلف المسرحى الأمريكى تنسى وليامز مسرحية « عربة اسمها اللذة » وبعد ذلك « وشم الورد » ثم « قطة على سطح صفيح ساخن » ..

(٣٢)

كانت آخر أعمال موتسارت : الناى السحرى .

مات موتسارت يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩١ فى الساعة الواحدة إلا خمس دقائق .. فقد أصابته حمى روماتزمية وفتق .

وهو الذى ألف الموسيقى الجنائزية التى تعزف عند تحرك الجنازة .
ولم يمش فى جنازته أحد ، إلا الحانوتى . أما زوجته فكانت منهارة فى البيت .
أما مجموعة مؤلفات موتسارت فهى ٦٥٠ عملا موسيقيا . .
وبدأ تولستوى روايته الخالدة (الحرب والسلام) .
وبدأ الأديب الفرنسى فلوبير روايته الرائعة (مدام بوفارى) . .
والأديبة مرجريت ميتشيل أصدرت رواية (ذهب مع الريح) .
وأديب سويسرا ديرنمات أصدر مسرحية « الزيارة » .
والموسيقار الفرنسى بيزيه أكمل تأليف أوبرا « كارمن » . ومات عن ٣٦ سنة
وفى سن الثلاثين مات سيد درويش .
وفى سن صغيرة توفى الشاعر كيتس (٣٥) .
والشاعر روبرت بروك (٣٥ سنة) .
والأديبة أميلى برونتيه (٣٥) .
وانتحرت الأديبة سيمون فيل جوعا (٣٥) .
ومات الشاعر بيرون .
ومات الشاعر رامبو .
والأديب توماس فولف .
والأديب الأمريكى ادجار بو (٤٠ سنة) .
والأديب ديلان توماس (٣٩ سنة) .
والأديب كافكا (٤٠ سنة) .
والأديب دى موبسان (٤٤ سنة) .
وكثيرون غيرهم لم يبلغوا الأربعين . .
قالوا كل ما عندهم فى سنوات من التدفق والفيض الكثيف . .
أظهروا كل ما لديهم . .
ولم تتحمل أجسادهم هذه الطاقة الضوئية العنيفة ليلا ونهارا . .
ولم تكن الظروف رحيمة بالعبقرى موتسارت ، ولا بغيره من الموهوبين . .
فخمدت أرواحهم بسرعة . . خمدت بالمرض ، أو تعجلوا هم نهايتها فانتحروا .

أكتب لنفسى وللذين يفهمون !



كان كل شىء فى موتسارت لاسعا حارقا .. لسانه طويل .. وذكاؤه متوهج .. ويستخدم ألفاظا نابية .. ويطلق نكتا عارية .. فكل شىء فيه خارق .. نافذ ..

(١)

كان ذلك فى روما يوم أربعاء الرماد سنة ١٧٧٠ ، زار موتسارت مع والده كنيسة القديس بطرس .. فقد أراد الابن أن يستمع إلى صلاة مشهورة باسم « العذاب » من تأليف الموسيقار البجرى .. وكان البابا قد أصدر قرارا بمنع أى أحد من نقل النوتة الموسيقية لهذه الصلاة .

حتى المنشدون كانوا ممنوعين من الاحتفاظ بالنوتة الموسيقية خارج الكنيسة .. سمعها موتسارت مرة واحدة .. وعاد للمرة الثانية وقد سجلها من الذاكرة ووضع النوتة الموسيقية تحت البرنيطة .. ولما ذهب إلى الكنيسة أخرج النوتة ليجرى عليها بعض التصحيح ..

وفى ذلك اليوم قال موتسارت لأحد الأساقفة : إن اللحن فيه أخطاء فنية .. ولابد من إصلاحها .

ثم جلس إلى البيانو وعزفها من الذاكرة مع تصويبها .

وعلم البابا بهذا الطفل المعجزة فاستدعاه واستمع إليه وهو يعزف هذا النشيد الدينى . وانبهر البابا ومنحه نوط الجدارة الذهبية .

وكتب موتسارت إلى والدته بما حدث . فظلت الأم تبكى ولا تعرف النوم خوفا عليه من أن يطرده البابا من الكنيسة !

(٢)

أما آخر أعمال موتسارت فهو لحن جنائزى . وقد ألف هذا اللحن فى ظروف غامضة مخيفة . فقد كان مريضا وغارقا فى الديون . فجاءه رجل طويل مخيف يرتدى أسود فى أسود ويخفى وجهه . وقال له : إنه قادم من عند رجل غنى يريد لحنا من تأليف موتسارت لعزفه أثناء الجنازة . وأنه مستعد لأن يدفع أى مبلغ من المال بشرط أن يتم اللحن فى شهر واحد . وانزعج موتسارت وأحس أن هذا الرجل الغامض هو الموت نفسه . . وأن الموت جاء ينذره باقتراب الرحيل وأن هذا اللحن الجنائزى سوف يكون فى جنازته هو . . ولكنه اندهش كيف يموت فى الخامسة والثلاثين من عمره ؟!

وكتب موتسارت لوالده يقول : أنا أعرف أننى سوف أدفع عمرى ثمنا لهذا اللحن . . ولكن أنا فى حاجة إلى المال أعطيه للجزار والبقال وصاحبة البيت . . وأريد لزوجتى أن تتفسح فقد تعبت معى كثيراً . . إن هذا الشخص الشاحب الذى كان واقفاً أمامى يخيفنى . . ثم إننى مريض وضعيف جدا وأرى فى الليل أشباحا كثيرة !

وطلب من الرجل الغامض أن يدفع له نصف المبلغ . ودفع الرجل وانصرف . ومضى شهر ولم يكتب موتسارت شيئا فجاءه الرجل يتعجل اللحن الجنائزى . ورجاه موتسارت أن يمهله شهرا آخر .

وفى يوم الأحد ٤ ديسمبر طلب موتسارت عددا من أصدقائه . وجلسوا يرددون الغناء فى اللحن الجنائزى وكان هو يقودهم من فراشه . . وعندما وصل إلى المرحلة الحزينة فى اللحن الجنائزى راح يبكى وهم يبكون أيضا . . ثم طلب إلى واحد من تلامذته أن يكمل اللحن بعد أن وجهه تماما إلى نهاية هذا العمل الجنائزى .

وعند منتصف الليل فقد الوعى . . وفى الساعة الواحدة صباحا نهض من فراشه وابتسم وحاول أن يقول شيئا . . ثم مات !

وفى اليوم التالى ذهب أحد الناشرين إلى أرملة موتسارت وقال لها : لا داعى لأن تنفقى أموالك القليلة على الجنازة .

وحملوا الموسيقار العظيم فى كفن هزيل وفى نعش حقير . . وانطلقت عربة

يجرها حصان . . وتقدم الحانوتى يدحرج النعش إلى حفرة فى الأرض وكانت تجلس عجوز عند حافة القبر . . سألت الحانوتى : ومن يكون بسلامته ؟

فقال : أبدا . . إنه واحد موسيقار !

(٣)

لم يعرف تاريخ الموسيقى صداقة أعمق وأصدق من صداقة موتسارت للموسيقار الألمانى العظيم يوسف هايدن (١٧٣٢ ـ ١٨٠٩) .

وفى يوم تلقى الموسيقار هايدن خطابا من مدير أوبرا براغ يطلب إليه تأليف أوبرا خفيفة . فكتب إليه الموسيقار هايدن يقول : من الصعب أن أستجيب لطلبك . فمن الصعب أن أؤلف أوبرا ترقى إلى مستوى أوبرات موتسارت . فأرجو إعفائى من هذه المهمة الثقيلة . وأرجو ألا ترفع عينيك عن هذا العبقرى موتسارت . إننى فى غاية الغيظ لأن مؤلفا فذا مثل موتسارت لم يحظ حتى الآن بمنصب مرموق فى البلاط الإمبراطورى . لا تؤاخذنى فإننى أحب هذا الفتى حبا عميقا !

وقد التقى موتسارت وهايدن لأول مرة عندما كان هايدن فى السادسة والخمسين ، وموتسارت فى السادسة والعشرين . . فقد جاء هايدن إلى فيينا بعد أن سمع عن موتسارت . فذهب إلى الأوبرا يستنشق موسيقاه . .

وفى أول دقيقة من اللقاء ناداه موتسارت : بابا . . أى يا والدى .

ثم قبله أمام الناس ، وكان يمتدحه فى كل مناسبة يذكره الناس . وبعد ذلك أهداه ست رباعيات وترية . . ولما سألوا موتسارت : ولماذا هايدن بالذات ؟

أجاب : هذا واجبى . فقد تعلمت منه كيف أكتب الرباعيات !

ولم يكن موتسارت يطيق أن ينتقد أحد هايدن . وفى إحدى المرات سمع من يقول : إننى لا أكتب شيئا من مثل هذا الذى يكتبه هايدن . .

فرد موتسارت غاضباً : طبعا لا أنت ولا أنا أستطيع وأنت تعرف السبب . فلا أحد منا يملك مثل هذه الأفكار الباهرة . . ولو أننا اتحدنا بعضنا ببعض ، فإننا معا لا نصنع واحدا مثل هايدن !

وظلا صديقين يشتركان معا فى العزف فى (موسيقى الغرفة) . وكانا يتحدثان عن مشاريعهما المقبلة وعن مشاكل التأليف الموسيقى .

وعندما وصل والد موتسارت إلى فيينا قام الموسيقار هايدن وعزف إحدى مؤلفات موتسارت الصغير تحية للوالد . ثم قال لوالده : ابنك يا سيدى عنده ذوق رفيع

وعنده أعمق فهم للتأليف الموسيقى . وأنا أعلن أمام الله أن ابنك هو أعظم موسيقار فى التاريخ !

وقد التقى موتسارت بهايدن لآخر مرة فى سنة ١٧٩٠ عندما قرر هايدن ترك فيينا ليعيش فى لندن ، وقد حاول موتسارت أن يقنعه بالبقاء قائلا له : لا تذهب يا بابا .. فأنت لا تستطيع أن تواجه المجتمع الإنجليزى الكبير .. ثم إنك لا تعرف لغتهم .

فقال له هايدن : موسيقاى هى لغتى ..

فعانقه موتسارت وهو يقول : ربما كانت هذه هى آخر قبلة !

وكان يقصد أن هايدن ربما مات قريبا .. ولكن القدر كان يضحك .. فبعد شهور مات موتسارت . فراح هايدن يبكى حزنا وأسفا على العظيم الشاب الذى ذهب .. وكان يقول لمن حوله :

ابكوا أيها السادة .. فلم يعرف ولن يعرف التاريخ عبقريا مثله !

(٤)

وعلى العكس من ذلك موقف الموسيقار العظيم بتهوفن (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧) من موتسارت .. فلم يذكره بكلمة طيبة واحدة فى أية مناسبة .. بينما كان بتهوفن يلقى من موتسارت تشجيعا مستمرا . فقد جاء بتهوفن من بون إلى فيينا وهو فى السادسة عشرة من عمره ليستمع إلى موتسارت ويقابله . وطلب من موتسارت أن يعطيه لحنا أو جملة موسيقية يعزفها ويبنى عليها إبداعا موسيقيا . فأعطاه موتسارت .. وظل يستمع إلى بتهوفن ساعة كاملة يعزف على البيانو .. ثم التفت موتسارت إلى من حوله قائلا : انتظروا هذا الشاب .. سوف تسمعه الدنيا كلها !

ولما قيل لبتهوفن فى إحدى المرات : لماذا لا تستمتع إلى موسيقى موتسارت كان يقول :

لا أريد .. ولا أحب .. فإننى أخاف أن يؤثر على أصالتى !

وفى إحدى المرات قدم نص أوبرا من تأليفه إلى مدير أحد المسارح ، ثم ذهب إليه بعد ذلك يطلب الأجر المتفق عليه .. فما كان من مدير الأوبرا إلا أن دفع مبلغا أقل ، فسأله بتهوفن : ولماذا ؟

فقال : إن المسرح خال من الناس .

قال بتهوفن : ولكنى لا أكتب للجمهور !

فرد عليه المدير : إن موتسارت نفسه كان يكتب للجمهور !

فغضب بتهوفن وسحب الأوبرا واختفى !

(٥)

كان موتسارت جافا خشنا إذا دافع عن وجهة نظره . ففى إحدى المرات قال له الإمبراطور يوسف الثانى : إن الأوبرا التى سمعتها أخيرا من تأليفك عيبها أنها غنية جدا بالألحان .. صحيح أنها ساحرة فاتنة .. ولكنها أعلى من مستوى آذاننا .. إننا لا نستطيع أن نلاحقها !

فقال له موتسارت : آسف يا مولاى .. إن فيها من الألحان ما أراه أنا ضروريا !

فرد الإمبراطور (غاضبا) : طبعا أنت أكثر دراية بما هو ضرورى !

(٦)

فى إحدى حفلات القصر الإمبراطورى دخل موتسارت الطفل واتجه مباشرة إلى الإمبراطورة ماريا تريزا (١٧١٧ - ١٧٨٠) وراح يقبلها فى عنقها .. فكانت هى أيضا تقبله فى حنان ..

وعندما انتهى العزف انطلق موتسارت فتزحلق على الخشب اللامع الناعم .. فسقط على الأرض وارتطم بأحد الأعمدة الرخامية ، وراح الطفل العبقرى يبكى .. فذهبت إليه الأميرة الصغيرة مارى انطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣) وأوقفته . فقبلها وقال لها : عندما أكبر سوف أتزوجك !

ولو تزوجها لتغير التاريخ .. فأن تكون هذه الأميرة زوجة لموتسارت أفضل من أن تكون زوجة الملك الفرنسى لويس السادس وتشنقها الثورة الفرنسية !

(٧)

أول أبريل سنة ١٩٣٣ وكان هتلر يتصيد اليهود فى كل مكان ليبعث بهم إلى أفران الغاز والمعتقلات . وفى ذلك اليوم كانت أوبرا برلين تعرض أوبرا « الناى السحرى » لموتسارت .. وكانت الموسيقى الساحرة تأخذ الناس إلى عالم الأساطير .. وفى الفصل الثانى من الأوبرا تقدم المطرب الأول من الجمهور وهو يغنى : فى هذه القاعة المقدسة يحب الإنسان أخاه الإنسان !

وكان المطرب يهوديا .. فصفق المسرح كله واقفا ! وكان هذا التصفيق احتجاجا على المذابح الدموية خارج المسرح ..

قال برنارد شو تعليقا على الكلمات التى يغنيها البطل : إن موتسارت وضع على لسانه كلاما لا تخجل السماوات أن تردده !

(٨)

كانت زوجة موتسارت كونستانسه تعيب عليه أن كتب أوبرا (دون جيوفانى) رفيعة المستوى يصعب على الناس العاديين فهمها . فقالت له : إن هذه الأمور عالية المستوى .. لا يفهمها الجمهور ..

فقال غاضبا : أنا لا أكتب للجمهور !

● لمن تكتب إذن ؟

فراح يتمشى فى الغرفة ثم يتوقف عند النافذة .. ويضع يده فى وسطه قائلا : أنا أكتب لنفسى ولبعض الأصدقاء الذين يفهموننى !

ومن رأى النقاد أن أوبرا « دون جيوفانى » هى أعظم وأكمل عمل فنى أبدعه أى إنسان !

(٩)

إنه العمل الدائم كل يوم .. فالعبقرية عرق وأرق ـ نصفها عرق والباقى أرق .. يقول موتسارت : لكى أبدع .. لابد أن أكون وحدى . فإذا كنت وحدى فإننى لا أعرف من أين تجىء الألحان .. إنها تجىء .. إنها تتدفق .. من أين لا أعرف .. إننى أضىء كل شىء حولى ..

إن عبارات موتسارت الموسيقية السهلة الرقيقة الناعمة هى أعظم أسرار الإبداع الموسيقى !

(١٠)

هل مات موتسارت مسموما !

سيظل هذا لغزا لا نعرف له حلا وبعد ١٦٥ عاماً لم نجد حلا لهذه المأساة .. الشاعر الروسى بوشكن ألف رواية عن ذلك .

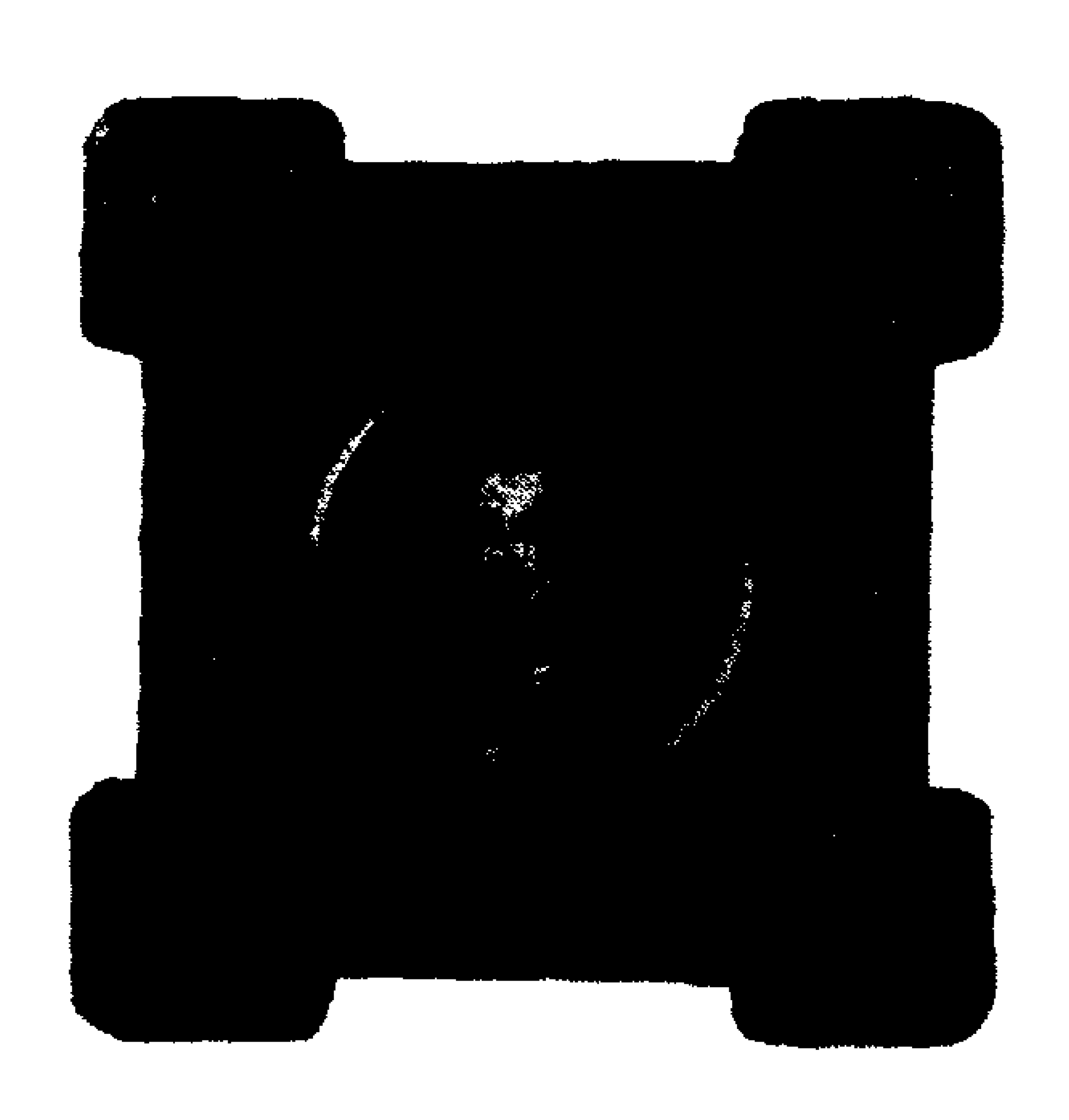
الموسيقار الروسى رمسكى كورساكوف ألف أوبرا أيضا ..

ويقال : إن الموسيقار الإيطالى أنطونيو ساليرى (١٧٥٠ ـ ١٨٢٥) هو الذى وضع له السم . وساليرى موسيقار معروف وهو الذى كان مدرسا لبتهوفن .. وكان على صلة قوية بعباقرة آخرين هم : جلوك وهايدن وشوربين . وقد مات ساليير فقيرا فى مستشفى الفقراء .

وقبل وفاته استدعى أحد تلامذته وقال له : أنا انتهيت وأريد أن أقول لك شيئا قبل أن أرحل : لم أضع السم لموتسارت !

ولما مات موتسارت قال العبارة التى قلبت عليه الدنيا : إن عبقريا مات . ويجب أن نبتهج لذلك . . وإن كان أحد لن يشترى موسيقاه بمليم !

وبعدها بدأت الشائعات عن القاتل للعبقرية . وكان فى استطاعة ساليرى أن يساعد موتسارت ليعمل فى البلاط الإمبراطورى . فلم يفعل . لقد كان يحقد عليه . . وقد عطله . . وسد الأبواب فى وجهه . واضطهده . . وقد لا يكون ساليرى قد قتل موتسارت ، ولكن من المؤكد أنه ارتكب ما هو أبشع من ذلك . . لقد أفسد عليه سنوات الإبداع وحطم أعصابه . . أملا فى القضاء على أعظم موهبة أعطاها الله للإنسان !



ولم يمش فى جنازته أحد .. ولا زوجته!

موتسارت هو أعظم عبقرية موسيقية خلقها الله .. وقالوا عنه أيضا : إنه أصفى وأنقى عبقرية فجة فى التاريخ .. أعظم صنايعى موسيقى .. وأعظم عقلية إبداعية .. أستاذ كل الأشكال الموسيقية .. وقد بلغت مؤلفاته ٦٠٠ عمل فريد فى الأغنية والنشيد والكونشرتو والسوناتا والأوبرا والسيمفونية ..

وقد أجمع النقاد على أن أوبرا « دون جوفانى » هى أكمل أوبرا ألفها أى موسيقار قبله أو بعده ..

وقالوا عنه أيضا : إنه معجزة الأطفال المعجزة .. معجزة المعجزات .. أدهش الملوك والباباوات والأساتذة فى كل الدول الأوروبية فى زمانه وبعد ذلك ..

فى الرابعة من عمره أدرك أبوه وهو مؤلف ومدرس للموسيقى أن ابنه طفل فذ .. وأن لديه القدرة الفائقة على أن يتعلم أى شىء من أول مرة .. ففى هذه السن الصغيرة كان قادرا على العزف على الكمان والأرغن والبيانو .. كأن إنسانا آخر فى داخله هو الذى يحرك أصابعه بسرعة وبراعة وإتقان وإيقاع دقيق ..

وفى الخامسة من عمره بدأ يؤلف لنفسه المقطوعات التى كان يعزفها مع أخته الموهبة .. وكان الأب يتنقل بهما بين العواصم الأوروبية .. وكانت أخته تؤلف لنفسها أيضا .. ولكن العبقرية كلها فى الطفل ..

وكان موتسارت طفلا مثل كل الأطفال يلعب ويلهو ويضحك ويبكى . . ولا شىء يدل على أنه موهبة خارقة . . فقط إذا أمسك آلة موسيقية أو أمسك قلما وورقة يكتب السيل المتدفق لأروع العبارات الموسيقية . . كان أبوه لا يستطيع أن يوفر له الورق اللازم ، فكان الطفل يكتب على الأرض . . وعلى ملابسه . . ثم ينقل ذلك من الذاكرة . . أو يظل ينطق العبارات الموسيقية حتى يعود إليه أبوه بورق جديد . .

وعندما أصبح فى سن المراهقة . . كان قصيرا شاحبا ضعيفا . . لا شىء يدل على عظمته . . لا شكله ولا صوته ولا حركته . . إنسان عادى جدا يخفى عبقريته . . عشرون عبقريا معا . . ويقال : مائة عبقرى . . إذا ضحك فإنه لا يتوقف . . وإذا أكل وإذا شرب وإذا رقص . . وإذا نام فكأنه لن ينهض من الفراش . . وإذا نهض لم يذهب إلى الفراش إلا منهارا من الإعياء . . من يراه يرقص يخيل إليه أنه لا يحسن فى دنياه إلا الرقص العنيف . . كان يذهب إلى الحانات يشرب ويرقص ثم يهجم على البيانو يعزف رقصات جديدة من إبداعه الفورى . . وكان فقيرا طول حياته . . لم يتوافر له العمل المناسب فى أى وقت . . ولذلك استدان من كل الناس . . البقال والجزار والنجار . . والجيران ، وكان كريما يدعو الناس إلى بيته . . ثم يذهب يقترض لهم الطعام والشراب . . المهم أن يكون هناك الناس . . وأن يضحك وأن يرقص وأن يؤلف الموسيقى والرقصات فورا . .

توفى موتسارت بالتهاب فى الكليتين بسبب الإرهاق فى العمل وسوء التغذية . . مات عن ٣٥ عاما إلا ٥٣ يوما . .

ويوم وفاته هبت عاصفة عنيفة ونزلت أمطار غزيرة . ولم تتمكن زوجته من السير وراء نعشه إلى القبر . . وبعد ١٧ عاما اكتشفت أن رفات زوجها سقط فى قبر أحد فقراء المدينة !

* * *

كان (الطفل) الذى بهر كل الرجال وكل النساء . . وكان الرجال والنساء ينظرون إليه كطفل يقبلونه ويدللونه . . ولكن هذا الطفل كان لا يقبل إلا النساء . . دون تفرقة بين إمبراطورة وامرأة وخادمة . . وكان يقبلهن فى أعناقهن وصدورهن وشفاههن أيضا . . وقد بعث لوالده فى إحدى الرسائل يقول : فى داخلى مائة شاب . . إن الحياة تصرخ فى كل جسمى بمنتهى العنف . . إننى أسمع نداء الجنس يدوى فى أذنى . . إننى لا أعرف من الذى يجعلنى أتهجم على النساء أقبلهن بهذا العنف . . وكانت النساء يصرخن من الرجل المراهق فى أعماقى . .

وكان موتسارت يعاكس كل الفتيات ويحب كل الفتيات .. وكان يقول عن نفسه : إننى لو تزوجت كل واحدة أحببتها لتزوجت مائة امرأة !

أحب فتاة صغيرة ووعدها بالزواج ثم قال لها : ولكن لن أتزوجك إلا بعد أن أتزوج هذه السيدة ..

ثم أشار إلى واحدة جميلة فقالت له : ولكنها أمى !

فقال : إذن تعالى نتعاون على تطليقها من والدك !

وفى إحدى رحلات موتسارت بين المدن الألمانية أقام فى بيت عمه . ووجد البنت الكبرى تدرس الموسيقى وتريد أن تكون مطربة أوبرا .. وعدها بالزواج عند عودته من السفر . عاد ليجدها مخطوبة لواحد آخر . ناقشها قالت له : طبيعى أن أتزوج رجلا آخر ! .

وبعد وفاة موتسارت سألوها عن السبب فى الالتفات إلى شاب آخر قالت : كنت أظنه (عيلا) تافها ! .

وسألوها : ألم تظهر عبقريته لك ولكل الناس .

قالت : ظهرت عبقريته ولكنها لا تدل على عبقريته فى جمع المال .. فتاريخ العبقرية فى أوروبا هو تاريخ العمر القصير والمرض الطويل والفقر السريع !

وعندما سمع موتسارت من هذه الفتاة أنها اتجهت إلى رجل آخر ، تركها واتجه إلى البيانو يؤلف لحنا حزينا ثوريا .. وظل الحزن يتسامى ويتسامى حتى ارتفع فوق مستوى البشر .. فكان حزنا سماويا خالدا .. وقد ماتت هذه الفتاة نكرة مجهولة من أى أحد .. ولم يذكر التاريخ اسم ماريا موتسارت - إلا على أنها ابنة عم الموسيقار العظيم الذى أصابها العمى فلم تلمح عبقريته ! .

وكان قد بعث إليها بخطابات كثيرة وطويلة .. وكانت هذه الخطابات هى الأخرى نوعا من المعجزة الأدبية .. فموتسارت لم يدخل أية مدرسة . وإنما علمه أبوه القراءة والكتابة والعزف .. والباقى أكمله الطفل بعقليته الجبارة .. ومن عجيب أمر هذا الطفل أنه لا يخطئ لا فى الإملاء ولا فى النحو ولا الصرف .. وإذا كتب النوتة الموسيقية فهى تتدفق بين أصابعه .. لا يشطب ولا يمسح .. وخطه الألمانى والنوتة الموسيقية جميلة الشكل ناعمة الانسياب ..

وفى إحدى المرات قال لوالده وهو يبكى : ولكنى لا أجد وقتا لنظم الشعر .. أريد أن أسجل موسيقى الشعر التى ترن فى أذنى .. ساعدنى يا أبى .. كيف

تكون لى يدان أخريان . . اثنتان أكتب بهما الموسيقى واثنتان أكتب بهما الشعر . . واثنتان أرسم بهما . . أريد كل ذلك . . ولكننى لا أجد الوقت لأعزف وأنظم وأرسم فى نفس الوقت !

واختار موتسارت فتاة لها دراية بالموسيقى . . وقالت له بمنتهى الصراحة : أريد رجلا طويلا عريضا لا قزما مثلك !

وكان يقول لها : أنا أطول من أى رجل خلقه الله . . صدقينى . . أنا أعظم إنسان فى هذا الزمان . أنا على يقين من ذلك . . وإذا لم يعترف أحد بعبقريتى فإما أنه أعمى أخرس ، أو هو الاثنان معا : حقود حسود !

ولكن أم هذه الفتاة دفعت إليه ابنتها الصغرى ، وهى التى تزوجها بعد ذلك . . وتعلقت به . . وتركته يخرج ويدخل ويرقص . . وفى يوم قالت له : اسمع لا أريد فضيحة لابنتى . . إما أن تتزوجها وإما أن تتركها فقد بدأ الناس يتكلمون . وأنا لا أريد الفضيحة لابنتى ! .

وكان قد أحبها ، ثم عادت تقول له : وإذا تزوجتها فلابد من عقد . وإذا فسخت العقد فيجب أن تدفع مبلغا من المال كل سنة .

وتم العقد والزواج ، ولكن عروسته واسمها كونستانسه قد مزقت العقد بعد أن وقع عليه . . وعاشت معه تسع سنوات وبعده خمسين عاما ! .

ولم يكن قد حصل على موافقة أبيه فى هذا الزواج . وجاءت موافقة أبيه بعد يوم واحد من زواجه . . ولم يفهم أبوه لماذا تزوج بهذه السرعة وهذه الفتاة الجاهلة بالذات . . ولكنه علمها كيف تقرأ النوتة الموسيقية . . وقد وصفها لأبيه قائلا : إنها فتاة بسيطة ولكنها ست بيت . ثم إنها تحبنى ، وتخرج كل ليلة ترقص وتشرب وتضحك وتعود لننام نوما عميقا ، ولكن إذا ناديتها فإنها تنهض بسرعة وتعد لى الطعام ثم تنام تصور يا أبى ! .

وقد عاشت طول زواجها حاملا . . أنجبت له ستة من الأولاد . . عاش منهم اثنان .

وعلى الرغم من أنه كان زوجا مخلصا ، فقد رويت عنه غراميات كثيرة لا أول لها ولا آخر . . وكلها كاذبة . فقد كان كثير الجلوس فى البيت يعمل بلا توقف . كان غارقا فى الإبداع . . ويريد أن يجلس ويتحرك أحد حوله . . وكان يطلب إلى زوجته أن تتكلم طول الوقت عن الذى قالته وعملته وأكلته وشربته . . ويطلب إليها

ألا تتوقف عن الكلام وخاصة فى الموضوعات التافهة . . فكانت تكرر الحكاية الواحدة . . فكان يقول لها وهو غارق فى الإبداع :

هذه الحكاية سمعتها من تسعة أيام . . غيرها . . غيرها بسرعة . . لا تتوقفى عن الكلام . . حاولى أن تقوليها بالمقلوب . . من آخرها . . حاولى هكذا : ثم يقلب الجمل بسرعة . . جملة وراء جملة . . كأنه عقل الكترونى ! .

وتزوجت بعده وعاشت مع زوجها فى الدانمرك وقد ساعدها زوجها الدبلوماسى على كتابة قصة حياة موتسارت . أو كتاب عن حياته . . وتركت قضية اختلف حولها المؤرخون : لماذا لم تذهب وراء جثمانه إلى القبر !

قالوا : إنها مرهقة . . وقالوا : كانت متخانقة معه . . وكانت قد تركت البيت وذهبت إلى أمها بسبب كثرة الديون وإسرافه فى الشراب وانهياره العصبى وهو يحاول أن يكمل لحنا جنائزيا ليعزفوه أثناء جنازته التى تصورها ضخمة فخمة . .

وقالوا : إن أحد ناشرى الأعمال الموسيقية . . نصحها بأن توفر فلوسها . . واللى مات مات . . إنه ذئب ومات !

ولكن اكتشف علماء الفلك بعد مائة سنة من وفاته ، أنه ليس صحيحا أن سقطت الأمطار أو هبت العواصف يوم وفاة الموسيقار !

واكتشفوا أيضا أن عددا من راقصات الكباريهات وبنات الليل هن اللاتى سرن فى جنازته وبكين عند إلقائه فى الأرض !

واكتشف المؤرخون أيضا : أن وفاة الموسيقار اكتشفت بالصدفة . . وأنه دفن فى قبور الفقراء . . وأن الزوجة لم تعرف إلا بعد أيام من الوفاة ، وأنها ذهبت وحدها إلى مقبرته . . ولم تجد أحدا يدلها على مكان الدفن !

وظهرت قصص غرامية كثيرة للموسيقار العظيم . . وادعت نساء وفتيات علاقات كاذبة وأطفالا منه . . والحقيقة أنه كان مخلصا لزوجته . . وأنه كان متدينا . . وأنه كان يخاف المرض . . وأن وقته كان موزعا توزيعا دقيقا بين العمل والعمل والحفلات والعمل والرحلات والعمل والرقص والشرب والنوم . . وكان مدفوعا بقوة هائلة فى كل هذه الاتجاهات . .

وكانت زوجته تقول : إنه كان ينهض من عز النوم جالسا . . إذا فتح عينيه وقف . . وإذا وقف اتجه إلى المنضدة يكتب ويكتب ألحانا كأنه قد ألفها أثناء

النوم .. ولا يتوقف .. يكتب أطول الألحان فى جلسة واحدة دون أن ينطق .. ويخيل لمن يراه أنه لا يتنفس أيضا .. أو أن أنفاسه تتحول إلى نوته موسيقية !

* * *

أهم ما اكتشفه المؤرخون مئات الخطابات التى بعث بها إلى ابنة عمه .. إنها (أقبح) خطابات كتبها أى إنسان .. ففيها كلمات نابية عارية ، وأكثرها من الكلمات ذات المعنيين .. أحد المعنيين جرىء .. كلها ذات دلالة جنسية ورأى المؤرخون الاحتفاظ بهذه الخطابات فى المتاحف الخاصة حرصا على الصورة الرائعة لأعظم موسيقار فى تاريخ الفن ..

وأغرب من ذلك أن موتسارت كان يجد متعة فى وصف (البول والبراز) كيف يتدفق البول والبراز ولونه .. وكذلك الأصوات التى تخرج منه .. ويصفها .. وكان يسجلها ألحانا موسيقية .. وأحيانا كان يعجب بها .. وكان يتغنى بأن لها صدى حزينا أحيانا .. وكان يقول فى رسائله لوالده : جلست .. وانطلق صوت .. ثم صوت .. وجاءت المفاجأة الكبرى صوت انفجار . ثم طلقات متقطعة وأخيرا هذا الناى الحزين .. تصور يا أبى !

* * *

وله مثل هذه العبارات : أنا إنسان غير عادى .. ولذلك يجب ألا ينطبق أى قانون على موهبتى ..

أنا لم أتعلم فى مدرسة .. ولو تعلمت لقضت المدرسة على موهبتى ..

* * *

أما والدى فقد فتح لى الباب ، وأنا الذى فتحت كل أبواب السماء والنور والخلود ..

* * *

الأعزب كائن نصف حى !

* * *

عبقريتى بلا حدود .. ويظلمنى كل من يحاول أن يضع لى قيودا !

* * *

يجب أن يحسدنى الناس وأن يحقدوا على . . فأنا شمس تنطفئ فيها كل المصابيح الصغيرة !

* * *

عندما قال له مدير أوبرا فيينا : ولكن أحدا لا يكتب مثل هذه الموسيقى . . إنها غريبة !

قال : طبعا غريبة . . لأننى لست مثل أى أحد . . ولن يكون مثلى أى أحد !

وقيل له : ألا تتواضع ؟

قال : إن الله خلقنى فوق الناس فكيف أتنازل عن حق إلهى .

وقيل له : بل يجب أن تتواضع مهما كانت عظمتك .

قال : ليس عندى وقت لذلك !

قيل له : ومن قال إنك أعظم موسيقار ؟

قال : أنا .

قيل له : ألا تترك ذلك للنقاد ؟

قال : لا . . لأنهم لن يفعلوا !

قيل له : يجب أن تتأدب فى حضور الإمبراطور ؟

قال : ولماذا لا يتأدب هو فأنا إمبراطور أيضا . . إمبراطوريتى أبدية !

* * *

قال المؤرخ الموسيقى العظيم إدوارد روزنتال : لم تعرف الموسيقى صفاء ونقاء وبهاء ورواء وانسيابا وتدفقا جميلا ونعومة وسموا وتساميا وعظمة فيها الإعجاز والعمق كما عرفت فى موسيقى موتسارت . . إنه يمسك الضوء ويجعل له صوتا ساحرا باهرا . فإن لم يكن هو العظمة نفسها ، فهو شىء آخر فوق العظمة !

والدي يا أعز الناس!

إن موتسارت في رسائله الأدبية رقيق العبارة ، ولكنه قاطع ، فهو في غاية الأدب ، ولكنه يفعل ما يريد ، مع احترامه العظيم لوالده .. فوالده كان شديد القلق على حالته المالية ، لكن ابنه مشغول بالإبداع رغم أنه عاش ومات فقيراً . وقد حاول كثيراً أن يحصل على أى عمل ثابت .. وهو مسرف إذا حصل على المال ، ومسرف في طلبه أو اقتراضه إذا لم يجده ..

ولم يكن من رأى والده أن يتزوج مبكرًا ، فقد ظن أبوه أنه سوف يعيش أطول . ولم يكن من رأيه أن يتزوج هذه الفتاة الساذجة الجاهلة . ولكن موتسارت لم يجد أفضل منها ولا أقدر على الوفاء باحتياجاته ، وقد تزوج قبل أن تجيء الموافقة على زواجه ..

وهذه بعض الرسائل البديعة التي كتبها فولفجانج أماديوس موتسارت لوالده .. وبعض رسائل والده وخطيبته وزوجته بعد ذلك ..

وهذه الرسائل قد نقلتها من كتاب بعنوان « الموسيقار يحب » وقد نشرها المؤرخ البريطاني سرينمل كلارك باللغة الألمانية ، وطبعت في هامبورج سنة ١٩٥١ ..

(١)

فيينا فى ١٨ / ١٢ / ١٧٨١

والدى يا أعز الناس

أنت تطلب منى تفسيرًا لآخر عبارة فى خطابى السابق .. معك حق . وما أسعدنى أن أفتح لك قلبى . لولا أنك قلت فى خطابك : إنه لم يكن من المناسب أن تفكر فى شىء من مثل هذا .. رغم أن التفكير مناسب لكل وقت ! فأنا ما أزال قادرًا على أن أدبر مبلغًا من المال لكى أتزوج . فهل أفزعتك فكرة زواجى وعمرى الآن ٢٦ سنة ؟ وأرجو أن تفتح لى أنت أيضًا قلبك لكى أعرض عليك أفكارى .

والدى يا أعز الناس ، إن صوت الغريزة يصرخ فى كل جسمى .. أكثر من أى شاب آخر عرفته ، وأنا أعرف معنى هذا الذى أقول . صدقنى ، ثم إننى لا أستطيع أن أعيش مثل شبان هذه الأيام .. أطارد الغانيات فى كل مكان . فأنا أولاً إنسان متدين ، ثم إننى أخاف المرض .. وأريد أن أعيش فى هدوء وسلام . ولابد أن أعتمد فى طعامى وشرابى على أحد .

فقد عشت طول عمرى معتمدًا على أمى يرحمها الله ، وعليك . أحب الحياة المنظمة المنضبطة . إنها إحدى بنات أسرة « فيبر » .. البنت الكبرى ملظلظة .. كسول .. خبيثة . وأمها أسوأ منها . والبنت الصغرى بسيطة .. ربنا يحميها من الفتنة .. والوسطى اسمها (كونستانسه) وهى شهيدة هذه الأسرة ، ولذلك فهى أطهرهن قلبًا وأذكاهن ، وهى لذلك أفضلهن جميعاً . وهى المسئولة عن إدارة البيت ولا أحد يمتن لها ، دعنى أصفها لك : ليست دميمة ، وأبعد ما تكون عن الجمال ، وجمالها فى عينيها السوداوين الصغيرتين وجسمها الجميل . وليست سريعة البديهة ، ولكن عندها حسن الإدراك الذى يجعلها قادرة على الوفاء بواجباتها الزوجية . إنها ترتدى الملابس المناسبة .. ملابس نظيفة . وليست أنيقة . ثم إنها تحبنى وأنا أحبها . فهل أطمع فى زوجة أفضل منها ؟ وأحب أن أقول لك إننى عندما استقلت من عملى فى بيت كبير الأساقفة ، فإن حبها لم يكن قد ولد بعد .. ولكن هذا الحب ولد من حنانها واهتمامها أيام كنت أعيش بين أسرتها ، وكل ما أتمناه يا أبى العزيز هو أن أوفر مبلغًا من المال نعيش به نحن الاثنان .

لقد كشفت لك عن الذى فى نفسى ، وفى انتظار أن أقرأ الذى فى نفسك . وأرجو أن يستمر عطفك وحنانك ورعايتك .

أقبل يديك ألف مرة .. وسوف أبقى ابنك المطيع دائمًا ..

فولفجانج أماديوس موتسارت .

(٢)

فيينا فى ٢٢ / ١٢ / ١٧٨١

والدى يا أعز الناس

أرجو أن ترفض هذه الأكاذيب التى تبلغك عنى . فلن أتزوج أبدًا وأنا عاجز عن الإنفاق على زوجتى ، وأنا فى انتظار أن يكون لى دخل ثابت لكى أقدم على الزواج .وبسبب الصفات التى لكونستانسه الحبيبة ، فإننى لن أجد من أفضل منها ..

ولأن هذه الفتاة قد مات أبوها ، فجاءنى أحد أقاربها الذى يرعى شئون الأسرة كلها . وهو الذى طلب منى أن أتقدم خطوة وأن أعقد زواجى عليها وإلا .. فلا داعى لأن أزورها أو أراها فى البيت أو خارجه .. وأنا أقسم لك يا والدى أننى لم أقابلها خارج البيت مرة واحدة . فقالت له الأم عنى : إنه شاب طيب وهو يزورنا وأنا لا أستطيع أن أمنعه من زيارتنا .

ولكن الرجل أصر على التعاقد ، وإذا لم يتم الزواج فى ظرف ثلاثة سنوات فمن الواجب أن أدفع لها « صداقًا » هو ١٥٠ عن كل سنة ، فما الذى أفعله إذا كانت هذه الفتاة هى التى أحبها ؟ ولذلك تعاقدت . وبعد أن ذهب هذا الرجل طلبت كونستانسه الحبيبة العقد من والدتها ، ومزقته قائلة : ليس بينى وبينه عقد . فأنا أصدق كل كلمة قالها ..

وهذا الذى فعلته جعلنى أزداد حبا لها . فأرجو أن تسامحنى يا والدى ، فأنا لم أفعل إلا الذى يرضيك ، وهو أن أكون صادقًا أحترم الناس ويحترمنى الناس .

شىء آخر أريد أن أطلعك عليه وهو أن هذا الرجل الذى يرعى شئون هذه الأسرة انتحى بى جانبًا وقال لى : ولماذا الزواج يا مغفل ؟ اتخذ لك عشيقة وعش سعيدًا .. ولكنها أفكارك الدينية السخيفة هى التى تمنعك من ذلك !

دعنى يا والدى أقبل يديك ألف مرة وأقبل أختى العزيزة من كل قلبى ، وسوف أكون أخلص الأبناء لك .

ف . ا . موتسارت

(٣)

فيينا فى ٩ / ١ / ١٧٨٢

والدى يا أعز الناس

لم أتلق خطابك . فهل أنت غاضب لأننى أخفيت عنك مشروع زواجى ، بعض الوقت ؟ معك حق . إنها غلطتى . ولكن السبب هو أخلاقى ودينى . وأنا أخجل فى الدفاع عن نفسى عندما أكون غلطانا . وليست عندى أية أخبار . فإلى اللقاء .

أرجو أن تسامحنى وأن تغمرنى بعطفك دائماً . . وبعيدًا عن حبيبتى كونستانسه لن أكون سعيدًا أبدًا . . فأرجو أن تساعدنى يا أعز الآباء . . وسوف أبقى دائمًا ابنك المطيع . .

ف . ا . موتسارت

(٤)

فيينا فى ١٦ / ١ / ١٧٨٢

والدى يا أعز الناس . .

هذا بالضبط ما حدث . . فالرجل الذى يرعى شئون أسرة كونستانسه هو فى نفس الوقت المدير للمسرح . . وحياتى كلها فى يديه . . فكل أعمالى الموسيقية يجب أن أسلمها له . . وإن هذا الرجل له صلة قوية بمدير الأوبرا . . ولا حيلة فى الذى فعلت ، وأرجو ألا تصدق ما يدعيه هذا الرجل . فهو يصف حماتى بأنها سيدة لعوب . . أبدًا . . لا تصدق كلمة واحدة مما يقول ، ولو كانت كذلك ما رضيت أن أقيم بينهم أو أختار واحدة من بناتها . . صحيح أنها تشرب ولكنها الوحيدة التى تشرب ، أما بناتها فمثلى ومثل أختى يشربن الماء . وعلى الرغم من أنها تشرب فلم أرها مخمورة قط . وأنا لا أكذب . وأنت على يقين من ذلك . .

دعنى أقبل يديك ألف مرة ، مؤكدا أننى ابنك المطيع لك دائمًا !

ف . ا . موتسارت

(٥)

فيينا فى ٣١ / ٣ / ١٧٨٢

أعز الناس والدى

كان فى استطاعتى أن أبعث لك بنسخة من النوتة الموسيقية لأحدث أعمالى . .

ولكنى أكتفى الآن بإرسال نسخة من السوناتا التى كتبتها أخيرًا . وكان لها صدى هائل فى فيينا . . فكسبت ألوف المعجبين وعشرات الحاقدين والحاسدين من الموسيقيين . وأرجو ألا تعطيها لأحد يعرفها . أختى فقط .

وأبعث إليك بعلبة نشوق ذهبية . . أما اللوحة الفنية فهى عن الريف الإنجليزى . وأرسل لأختى العزيزة بطاقيتين موضة فى فيينا الآن . وهما من صنع كونستانسه حبيبتى . . وهى لا تعرف بالضبط : ما هو ذوق أختى فى الألوان ؟ وكونستانسه تستأذن إن كان من الممكن أن تبعث برسالة إلى أختى . .

دعنى أقبل يديك ألف مرة ، وأحتضن أختى من صميم قلبى ، وأبقى دائمًا ابنك المطيع .

ف . ا . موتسارت

(٦)

فيينا فى ١٠ / ٤ / ١٧٨٢

والدى أعز الناس

أنا سعيد لأنك تسلمت كل ما بعثت به إليك ، ولأنك سعيد بهديتى إليك . وأن أختى سعيدة بالطاقيتين . . وكونستانسه سعيدة كذلك . .

وأحب أن أقول لك يا أبى : إن الهدية التى بعثت بها إليك لم أشترها ، وإنما تلقيتها من أحد المعجبين . . وأحب أن أقول لك : إن أم كونستانسه هى التى تشرب الخمر ، ومن الغريب أنها تحاول إرغام بناتها على أن يشربن مثلها . . ولكن البنات يرفضن . وأنا مندهش لسلوك هذه السيدة !

أقبل يديك ألف مرة ، وأعانق أختى العزيزة من صميم فؤادى . . وأظل دائمًا أكثر الأبناء طاعة لك .

ف . ا . موتسارت

(٧)

فيينا فى ٢٠ / ٤ / ١٧٨٢

أختى الحبيبة

إن حبيبتى كونستانسه استجابت لنداء قلبها وكتبت إليك . فهل تشرفينها

وتسعدينها بالرد عليها ؟ هذا أملى وهى لا تستطيع أن تقول لأمها وأختيها إنها كتبت إليك . وأنت تفهمين السبب .

أرجو أن أبعث إليك بأحدث مؤلفاتى . وأنا سعيد بأن الهدية قد أعجبتك وأنها على ذوقك . .

أقبلك ألف مرة . وسوف أبقى دائما أخا مخلصا .

ف . ا . موتسارت

(٨)

فيينا فى ٢٠ / ٢ / ١٧٨٢

المحترمة والصديقة الغالية

لم يكن فى استطاعتى إلا أن استجيب لنداء القلب . . ولولا أن أخاك هو الذى أكد لى أنه لن يضايقك أن تتلقى رسالة من شخص لا تعرفينه ، ما كتبت إليك . . ولكنه شخص يشاركك حب موتسارت . . وإنك أنت تحملين نفس الاسم الذى هو مصدر سعادتى . . وأرجو أن تتقبلى منى ومن أخيك العزيز أعمق تحياتى ، وتحياتى إلى والدك الذى أقبل يديه ألف مرة . .

كونستانسه

(٩)

فيينا فى ٢٩ / ٤ / ١٧٨٢

أعز الأصدقاء كونستانسه

طبيعى أن أقول إنك صديقتى وأعز الأصدقاء أيضا ، فأنت أعز الناس جميعا ، وحتى إذا لم نصبح زوجين فالذى بيننا قوى جدا عميق جدا . . فأنا ما أزال أحبك حبا شديدا . ولكن لا أعرف لماذا أحرجتنى هكذا أمام الناس ؟ وكيف أنك أعلنت أمامهم جميعا : إن علاقتنا لن تستمر ؟!

كل ذلك لأننى اعترضت على شخص غريب يمسك فتلة ويقيس استدارة خصرك وردفيك . . كيف يحدث ذلك من شخص غريب أمام الناس ؟ . إننى لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس ! وإذا كانت إحدى سيدات الطبقة الأرستقراطية قد فعلت ذلك ، فهذا شأنها . . إننا من طبقة مختلفة . طبقة فاضلة . محافظة محترمة . . إننى لا أحب مثل هذا السلوك ولا أراه محترما .

وحتى إذا لم نصبح زوجين .. فإننى أنصحك ألا تفعلى ذلك .. وألا تنتمى إلى هذه الطبقة المنحلة .

أرجو أن تتأكدى من حبى العميق لك يا أحب الناس .

ف . ا . موتسارت

(١٠)

فيينا فى ٨ / ٥ / ١٧٨٢

والدى يا أعز الناس

تلقيت خطابك وخطاب أختى إلى كونستانسه الحبيبة وقد سلمته لها . وقد أحدث خطاب أختى بهجة عظيمة وسوف ترد عليه . وهكذا تقام علاقة قوية بينهما . وأريد أن أسأل أختى إن كانت (الكرانيش) فى فساتين سالزبورج أيضا ؟ وهل أختى تجعل الكرانيش والشراشيب فى فساتينها ؟ إنها الموضة هنا . وهل فى استطاعتها هى أن تضع الشراشيب فى ذيل فساتينها ؟ لقد أعدت كونستانسه فساتين لأختى ، وأرجو أن أقرأ عن الألوان التى تحبها . وإن كانت الألوان الموضة هنا هى : الأبيض والأسود والأخضر والأزرق .. والفساتين الحريرية هنا يجعلون لها شراشيب من القطن .. ولا يستطيع أحد أن يفرق بين القطن والحرير إلا إذا لمسها .. ثم إنها من القطن ليسهل فصلها عن ذيل الفستان وغسلها ..

وإلى اللقاء مع تقبيل يديك ألف مرة ، وسوف أبقى ابنك المطيع دائما .

ف . ا . موتسارت

(١١)

فيينا فى ١٣ / ٣ / ١٧٨٢

أبى يا أعز الناس

أنت تعرف أننى حسن النية . فأنا لم أبعث إليك بأحدث سيمفونية ألفتها ، لأنها تحتاج إلى تعديل .. كما أن الأعمال الفنية الأخرى التى بعثت بها إليك قد كلفنى إرسالها مبلغا كبيرا ..

أما خطابك الأخير فكان شديد البرودة واللامبالاة .. ولم أقرأ لك أى تعليق على النجاح الهائل الذى فزت به عندما عرضت أعمالى على مسرح الأوبرا ،

كانت الأوبرا كاملة العدد ، وقد استبعدت كثيرا من (الحركات) الموسيقية . إن هذا النصر المتصل يخلق حقدا متصلا من أناس كثيرين . .

وسوف أتلقى ردا منك تحدثنى فيه عن سعادتك بهذا النجاح وموافقتك على زواجي . فلن يكون لوالدى اعتراض على زواجى . . فكونستانسه فتاة طيبة ومحترمة وأنا قادر على الإنفاق عليها فكلانا يحب الآخر ويريده زوجا . وكل ما كتبته أنت يا أبى هو النصيحة ، وهذه النصيحة لم يعد لها مكان الآن بعد أن سرت فى الطريق حتى آخره صدقا وحبا وحرصا على الزواج أملا فى الاستقرار واستمرارا فى الإبداع .

وسوف يباركنا الله . فإلى اللقاء . مع ألف قبلة على يديك من ابن مطيع لك دائما . . وأقبل أختى من كل قلبى . .

ف . ا . موتسارت

(١٢)

فيينا فى ٢ / ٨ / ١٧٨٢

سيدتى النبيلة عظيمة الاحترام

لا يسعنى إلا أن أتقدم لك بعظيم الامتنان ووافر الشكر . .

اسمحى لى يا سيدتى أن أبثك بعض همى . . فقد جاءت خادمتك ومعها النوتة الموسيقية التى بعثت بها إليك . وطلبت منى أن أوقع على ورقة باستلامها . . ثم إن شيئا فظيعا قد حدث . . لقد طلبت منى أن أبعث بكونستانسه الحبيبة إلى أمها وإلا جاءت وأخذتها بالبوليس . فمنذ متى يا سيدتى يدخل البوليس بيوت الناس ؟! ربما كان الغرض من ذلك هو استدراج كونستانسه إلى بيت أمها . . وعلى ذلك فلابد أن أتزوجها اليوم أو غدا . . فلا حياة لنا بعيدا عن بعضنا البعض .

أرجو نصيحتك يا سيدتى النبيلة العظيمة . . وأنت تعرفين كل الأطراف . ونحن جميعا نعيش فى عطفك وضوء فكرك وعظيم تقديرك . .

إن الفتاة التى أحبها لن أعرضها للفضيحة أبدا . وسوف ألزم البيت فى انتظار رأيك السديد . . دعينى أضع على يديك ألف قبلة . وسوف أكون دائما عظيم الامتنان لفضلك .

ملحوظة : إن حبيبتى كونستانسه لا تعرف شيئا عن كل هذا .

ف . ا . موتسارت

(١٣)

فيينا فى ٧ / ٨ / ١٧٨٢

والدى يا أعز الآباء

كونستانسه الحبيبة ، وزوجتى أخيرا ، تقدر مشاعرى وتعرف كل ظروفى ، وتحبنى لكل ذلك . وهى قد ضحت بمستقبلها من أجلى . . أقبل يديك ألف مرة وأجدد لك حبى العظيم ، حب ابن لأبيه .

لقد كنت على يقين من موافقتك على زواجى . وقد جاءت الموافقة متأخرة يوما . . فقد تحدد موعد الزواج ، لأننى كنت أعرف أنك سوف توافق . وأقمت حفلة عشاء . . وتم التوقيع على العقد . . وعندما انفردت بكونستانسه الحبيبة رحنا نبكى نحن الاثنان . . فبكى كل الناس حولنا . وهم يندهشون لهذا الذى فعله الحب بنا ، إننى لا أكذب عليك يا والدى العزيز ولا أعرف كيف لو حاولت .

أبعث إليك بمارش موسيقى أرجو أن يكون النصف الأول منه حاد العزف ، والنصف الآخر هادئ العزف . .

وأنا وزوجتى نقبل يديك ألف مرة ، وسوف نقبل أختى بمنتهى الحرارة ، وأنا دائما أكثر الأبناء طاعة لك . .

ف . ا . موتسارت

(١٤)

سالزبورج ١٣ / ٨ / ١٧٨٢

سيدتى عظيمة الاحترام

لقد كنت أعتقد دائما أن الفلاسفة هم أقل الناس كلاما ، وأكثرهم تفكيرا ، وأشدهم احتقارا للدنيا . . وفجأة اكتشفت أنى فيلسوف دون قصد منى . .

إننى قلق على ابنى أماديوس من الإرهاق والتوتر المستمر . . حاولى يا سيدتى أن تعلميه الصبر . . أنا أعلم أن الله قد أودع فيه عبقرية فريدة . . ولذلك يجب أن يتحلى بالصبر يا سيدتى . حتى يكمل ما أراده الله . . وأنا أعلم أنه لو مات فإن الموسيقار ساليرى سوف يأتى بواحد غيره وفى نفس المكان مع تشويه وإخفاء لكل أعماله الفنية . أنا أعرف ابنى . . إنه يا سيدتى متطرف إذا أكل وإذا شرب وإذا عمل . . وإذا طلب الفلوس أسرف فى إنفاقها ، وإذا لم يجدها أسرف فى طلبها واقتراضها من كل الناس !

فساعديه يا سيدتي العظيمة ، ونحن جميعا مدينون لك بالفضل والرأى الحكيم والنظرة الثاقبة والحنان الذى لا حدود له ..

ولك الحب دائما والشكر أبدا .

الأب موتسارت

(١٥)

فيينا فى ٣ / ٥ / ١٧٨٣

أعز الناس والدى العزيز

أنا الآن وزوجتى خارج المدينة .. الجو جميل جدا . وهى فى حاجة إلى الراحة وهى حامل .. ولذلك تحتاج إلى الرياضة .. سوف أبعث إليك بخطاب طويل أتحدث فيه عن افتتاحيات عديدة ألفتها ..

ألف قبلة على يديك منى ومن زوجتى ، ومن كل قلبى أحتضن أختى العزيزة .. وسوف أكون دائما أكثر الأبناء طاعة لك .

ف . ا . موتسارت

(١٦)

فيينا فى ١٨ / ٦ / ١٧٨٣

أعز الآباء والدى الحبيب

مبروك ! لقد أصبحتَ جدا .. فقد وضعت زوجتى مولودها ، فى صحة جيدة ، إنه ممتلئ كالثور . بدأت المخاض فى الساعة الواحدة صباحا . واستدعيت أمها والداية . وظهر المولود فى السادسة والنصف صباحا .. ولم ننم تلك الليلة . وخوفا من حمى النفاس فقد قررت أن يرضع طفلنا ثدى إحدى الممرضات . ولم أكن أتمنى ذلك . ولا حيلة لى . وكان لابد من وجود أب روحى . وجاء أول من رأى الطفل قال : إذن ليكن اسمه على اسمى : ريموند .. وكنت قد أسميته ليوبولد على اسمك أنت .. إذن فاسمه ريموند ليوبولد .. فاسمك نصف اسمه .

وأنا وزوجتى كونستانسه الحبيبة نقبل يديك ألف مرة .. وسوف أبقى أخلص الأبناء وأكثرهم طاعة لك !

ف . ا . موتسارت

الجبل لا يكون واديا !

الدنيا كلها تحتفل بمرور ٢٣٥ عاما على ميلاد أعظم موسيقار خلقه الله : فولفجانج (أماديوس) موتسارت . ولد يوم ٢ يناير سنة١٧٥٦ .

كل عواصم الدنيا سوف تثبت لنفسها ولأهلها وللعالم أنها على صلة بالحضارة الإنسانية . . وأنها تفهم وتتذوق وتمتن للعبقرية .

لقد أبدع موتسارت فى ٣٠ عاما ٦٢٦ عملا موسيقيا ـ نشرت فى ٤٥مجلدا (٥٠ سيمفونية أهمها رقم ٢٨ و ٣١ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ ، و٢٢ أوبرا أهمها : الناى السحرى ، وزواج فيجارو ، ودون جوفان ، والسراى (بالألمانية) ، و ٢٧ كونشرتو للبيانو ، و ٦ كونشرتو للكمان ، و ٨ كونشرتو لآلات النفخ ، و٢٦ رباعية وترية ، و ٦ خماسية وترية . .) .

هذه الأعمال البديعة إذا عزفناها الواحد وراء الآخر استغرقت ثمانية أيام بلياليها . .

أما مدينة سالزبورج التى ولد فيها فهى عروس المدائن جميعا . . وسوف يحج إليها الملايين تستقبلهم الأعلام والصور والتماثيل والموسيقى من كل مكان والشيكولاته التى وضعت عليها صورته ورسمه واسمه .

أما الحكومة النمساوية فقد طبعت صورة الموسيقار على ورقة مالية من فئة خمسة آلاف شلنج . .

حتى اتحاد البلياردو البريطانى قام برحلة حول العالم ابتهاجا بالذكرى المئوية الثانية لوفاة موتسارت . فقد كان من عادة موتسارت وهو يعزف موسيقاه العظيمة أن يلعب ببرتقالة يقذف بها يمينا وشمالا حتى إذا عادت إليه قذفها مرة أخرى إلى أن يفرغ من التأليف كأنه يلعب البلياردو ـ لقد فات الطفل المعجزة أن يكون طفلا يلعب !

واليابان صنعت للأطفال ألوف الملايين من التماثيل واللعب التى كان يتمنى موتسارت أن يجدها . .

أما الاحتفال العظيم فهو فى (مركز لنكولن) بنيويورك . . وقد قرر الاحتفال بأعمال موتسارت على مدى ١٩ شهرا . . وسوف يفتح قاعاته لأعظم الفرق الموسيقية من كل الدنيا تعرض أوبرات وسيمفونيات وسوناتات وكونشرتات موتسارت .

* * *

إن الإمبراطور يوسف الثانى عندما استمع إلى موسيقاه قال : رائعة . . ولكن عيبها الوحيد أنها مليئة بالمعانى ! .

لقد عاب الإمبراطور على الطفل المعجزة هذا الثراء الفنى !

* * *

قال الموسيقار تشايكوفسكى : إننى أحب موتسارت لأنه « مسيح » الموسيقى !

* * *

قال الموسيقار فاجنر : إنه أعظم عبقرية فى زمانه وكل زمان !

* * *

قال برنارد شو : إن موسيقاه هى أروع ما خرج من بين أصابع الله !

* * *

وفى نيويورك سوف يعرضون فيلم « أماديوس » على المسرح . ذلك الفيلم الذى حصل على ثمانى جوائز أوسكار للمخرج والمؤلف الأول والثانى والذى قام بمزج الموسيقى والتصوير .

وكثير من المتفرجين يستحقون هذه الأوسكار لأنهم رأوه عشرين مرة ـ أنا واحد من هؤلاء مع عظيم الامتنان للمؤلف والمخرج وجميع الممثلين . . وفى مقدمتهم موتسارت الخالد السهولة والجمال !

* * *

قال عنه أعظم النقاد المعاصرين ادموند ويلسون : إن عباراته سهلة على الطلبة صعبة على الأساتذة !

* * *

وهذا هو السهل الممتنع - سهل أن يعزفه أصغر تلميذ ، صعب أن يؤلفه أعظم موسيقار !

وسوف يعرض مركز (لنكولن) كل أعماله حتى التى لم يكملها مثل أوبرا « عين القاهرة » . . إن موتسارت كان يسعده أن يشترك فى مثل هذه المهرجانات : غناء ورقصا ولعبا وحلوى ! أما فيينا التى مات فيها - فى حاناتها ومسارحها . . والذى قتله حقد الموسيقيين الآخرين - فسوف تكفر عن ذنبها بالمبالغة فى الاحتفال بكل الأوبرات التى ألفها . . والتى زلزلت عالم الإبداع الموسيقى . . أما القصر الملكى (شينبروم) فسوف يعاد الذهب إلى جدران وأثاث القصر . . ففى هذا القصر ظهرت عبقرية موتسارت وهو فى السادسة من عمره وفى هذا القصر صعد على ساقى الإمبراطورة ماريا تريزا وراح يقبلها بعمق شديد - فقالت الإمبراطورة : إن الطفل لم يكن برىء القبلات !

* * *

نحن فى اللغة العربية نقول عن مؤلف الموسيقى : إنه موسيقار . . ومن أربعين عاما كنا نفرق بين الموسيقَى - فتح القاف - فى فن الموسيقى . . وبين الموسيقِى - بكسر القاف - أى المشتغل بهذا الفن . .

وقلنا فى ذلك الوقت لابد أن نفرق بين الفن والفنان فالموسيقا - بالألف - هى فن الموسيقى أو علم الموسيقى . . أما المشتغل بهذا العلم فهو : الموسيقى - بالياء . .

ولكن العرب استخدموا كلمة الموسيقار للدلالة على الذى يؤلف الموسيقى . . فالمفكر العربى الكبير أبو حيان التوحيدى قد استخدم كلمة : الموسيقار وقال إنها ترجمة عن اللغة اليونانية .

واستخدم أبو حيان التوحيدى كلمات : المطرب و المغنى والمهود والضارب .

يقول أبو حيان التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) : الموسيقار هو الذى يؤلف الألحان ويؤديها . . وهو أيضا من يجيد العزف على الآلات الموسيقية .

والمطرب هو من يجيد الغناء ويثير البهجة والسرور .

ويقال أيضا عن الكاتب : إنه مطرب .. لأن له عبارة تثير البهجة ..

والمغنى : هو صاحب الصوت الشجى العذب الذى يثير بغنائه من يستمع إليه ..

والمهود بكسر الواو هو من يحسن ترجيع الصوت .. وهو المطرب أيضا .. والتهويد .. هو ترديد الصوت فى لين ونعومة .. ومعناه أيضا : الإبطاء والسير اللين والترفق .. ونقول : هودته الخمر أى جعلته يسكن وينتشى .. والتهواد هو الصوت الضعيف اللين الفاتر . والمهود : هو المطرب الملهِى ـ أى الذى يطربك ويلهيك عن أى شىء آخر إلا الاستماع إليه .

ويرى أبو حيان التوحيدى وكذلك الخوارزمى أن الموسيقار هو أعلى درجات الإبداع ..

* * *

ومن كل الأعمال الفنية التى ظهرت عن موتسارت سوف يبقى فيلم « أماديوس » أروعها وأمتعها وأخفها دماً . وهذا الفيلم قائم على مسرحية من تأليف الأديب بيتر شافر .. والفيلم يبدأ بموسيقى موتسارت وصراخ الموسيقار ساليرى أعدى أعداء موتسارت وأكثرهم حقدا على موهبته الجبارة .. يصرخ ويقول : سامحنى يا موتسارت أنا الذى قتلتك .. سامحنى .. أنا قاتلك !

ويسرع الناس يأتون بقسيس ليدرك الموسيقار ساليرى موسيقار البلاط النمساوى .. ويتحدث ساليرى بأروع عبارات الندم والمرارة والحقد على موتسارت .. فهو يتحدث إلى صورة للمسيح على الصليب ويقول له : كيف تضع عظمتك كلها فى هذا البهلوان القبيح .. هذا القزم القذر .. كيف لم تضع عبقريتك فى واحد مثلى ـ يكون أحسن داعية وأعظم حجة للناس لكى يعبدوك .. أنا الذى أتشرف وأشرف هذه العبقرية .. لماذا تغرس حب الموسيقى فى كل خلاياى ثم تجعلنى أخرس .. وتجزل العطاء كله على أراجوز مقرف مثل موتسارت .. لو أعطيتنى بعض الذى أعطيته .. بعضه فقط .. لازداد إيمان الناس بك .. لماذا جسدت عظمتك فى أحقر الناس .. أى عدل هذا ؟!

ويعترف ساليرى بأنه منذ ظهرت عبقرية موتسارت فى إبداع الأوبرات وهو قد نذر نفسه للقضاء عليه .. لطمس صورته .. وتعطيل عظمة الله أن تظهر فى هذا الطفل ..

ويقول : لقد قررت أن أحاربه وأن أحاربك .. منذ اليوم ..

ثم ينهض ويلقى بالمسيح والصليب فى النار !

وتتدفق عظمة الطفل يوما بعد يوم فى القصور وأمام الكرادلة والبابا .. لا شىء يوقف هذا الفيض الإبداعى الهائل .

إن أحسن وصف لعظمة موتسارت هو أنه عبقرية « فجة » عبقرية غير مهذبة والفرق

بين العبقرى المهذب والعبقرى القبيح كالفرق بين الحديقة والغابة . . بين النسيم والعاصفة . . بين ماء الحنفية والبحر . . بين قطرات الندى والمطر . . بين عود كبريت والبرق . . إن والده ليوبولد قد علمه كل شىء فى فن الموسيقى ، ولم يتسع وقته وفنه ليعلمه كيف يتكلم ويكون مهذبا أو كيف يأكل ويكون متمدينا . . أو كيف يرقص ويكون محتشما . . إنه لم يذهب إلى أية مدرسة . . ولا أحس بأحد . . بنفسه فقط . . بعظمته فقط . . بأنه سيد الناس وأعظم العازفين فى عصره وكل العصور .

وفى الفيلم نرى البلاط الملكى يعترض طريقه ، الإيطاليون الذين يسيطرون على إدارة المسارح فى أوروبا . . ويسخر منهم . . ويترصدونه ويتجسسون عليه . . ويبهرهم كيف أنه إذا كتب فخطه جميل جدا . ثم إنه لا يشطب كلمة واحدة . . وإذا ضاعت أوراقه فهو يحتفظ بها فى دماغه . . بل إنه يحفظ أى لحن من سماعه مرة واحدة مهما كان طويلا .

وفى الفيلم وصف بليغ جدا للموسيقى وهى تتسامى نغمة نغمة . . ويرافقها الصوت الجميل أو يطير بها . . أو تطير به . . ففيلم أماديوس غنى بالتعبيرات البديعة والعبارات المبتكرة . . كان المؤلف يريد أن يرقى إلى سماوات الموسيقى . . إنه يحاول . . ومحاولاته كلها ناجحة . . ومن حين إلى حين تطل علينا صورة ساليرى العجوز هو يتلقى اللطمات والضربات ويقول للقسيس : ليس موتسارت هو الذى يسخر منى . . إنه الله هو الذى يسخر منى . . هو الذى أراد أن يمسح بى الأرض ويرفع موتسارت إلى عرشه فى سماء السماوات .

ويظل موتسارت خائفا من والده . . كأنه طفل فعلا . . ولا تفارقه صورة الأب الغاضب الذى ليس راضيا عن حياته الفوضوية . . ولا عن زواجه ولا عن زوجته الحامل . . التى عاشت حاملا دائما . . ومات أربعة من أولادها الستة بسبب الإهمال والجهل . . ولكن موتسارت مجنون بها . . ثم إنها هى الأخرى غير مهذبة . . لقد طردت والده من البيت بعد ساعة واحدة من وصوله .

ويؤدى الإرهاق الشديد وسوء التغذية وقلة النوم إلى ضعفه وهزاله . . وإلى نقص المال والاقتراض من كل الناس . . حتى جاءه من يقول له : أريد لحنا جنائزيا لأحد العظماء لا يريد أن يعرف أحد اسمه . . وإليك هذه الأموال !

وكان موتسارت هزيلا مريضا . . وكانت زوجته قد تركته لأنه أصبح عصبيا . . يهزى ويهدد ويتوعد ويؤلف .

وكان الموسيقار ساليرى هو الذى يريد هذا اللحن الجنائزى لتعزفه الفرق الموسيقية أثناء جنازة موتسارت . . ولم يتمكن موتسارت من إكمال هذا اللحن . .

وفى غياب زوجته جاءه ساليبرى لكى يملى عليه النوتة الموسيقية لهذا اللحن الجنائزى .. وقبل أن يكمله عادت الزوجة كونستانسه .. لتضبط ساليبرى يكتب ما يمليه موتسارت .. فأخذت النوتة الموسيقية ووضعتها فى الصندوق وأقفلت عليها .. وطردت ساليبرى من البيت .

وينتهى الفيلم الرائع بجنون ساليبرى وموت موتسارت وجنازة حزينة لم يمش فيها أحد من الناس .. وعند المقابر تسأل عجوز : ومن هذا ؟

ويقول الحانوتى : أبدا .. إنه موسيقار !

واحد فقير تعيس آخر !

* * *

وعندما ألف موتسارت أول أوبرا وقيل له إنهم سيعرضونها على لجنة . ذهب يسأل : ومن هم أعضاء اللجنة ؟

وذكروا له أسماءهم ..

فقال : هؤلاء يناقشون أعمالى .. هؤلاء الإيطاليون الحمقى الجهلة ؟!

قيل له : قليلا من التواضع أيها الشاب الصغير !

قال : ولماذا التواضع .. من الصعب أن تقول لجبل : حاول أن تكون واديا .. أراده الله جبلا فكيف تريده واديا أو كهفا ؟!

فقيل له : تواضع يا غلام !

فأجاب : إننى بلغت مكانا عاليا .. فأى مكان أعلى من هذا .. ومن هم الذين أعظم منى .. إننى لا أعبأ كثيرا بما يقولون .. ولا أحتد على أحد .. ولست مغرورا .. وإنما أنا هكذا !

ومن قبله قال عبقرى الشعر العربى المتنبى : لا مكان أعلى من مكانى .. ولا أعظم .. وكل مخلوقات الله قبلى وبعدى لا تساوى شيئا .. أنا الذى أساوى كل شىء .

قال أعظم الشعراء العرب أبو الطيب المتنبى :

أىَّ محل ارتقى ؟
أىَّ عظيم أتقى ؟
وكل ما خلق الله
وما لم يخلق
محتقر فى همتى
كشعرةٍ فى مفرقى !

العبقرية ومعناها !

اختلف المؤرخون على كل صفات الموسيقار العبقرى موتسارت ، ولم يختلفوا على شيئين : أنه عبقرى وأنه طفل . . وأنه ظل طفلا حتى آخر يوم فى حياته . .

قالوا : إنه طفل متدين جدا . والدليل على ذلك المقطوعات الموسيقية الكنسية والطقوسية والجنائزية . وإنه كان يراعى الله فى كل علاقاته بالجنس الآخر . . وأن هذا هو السبب فى أن الفتاة التى أحبها هى التى تزوجها . ولم يعرف غيرها . .

ولكن قالوا : إنه يحترم الدين ولكنه يحتقر رجال الدين ، فهم أناس متشددون ولم يؤمنوا بعبقريته . . وأنهم لم يعطوه إلا القليل من المال . .

وقالوا أيضا إنه (ماسونى) . . وهذا واضح فى أوبرا (الناى السحرى) . .

* * *

وقالوا : ولم يكن مخلصا لزوجته . . فقد عرف عددا كبيرا من الفتيات والزوجات .

وعندما مات موتسارت قالوا : إن هناك أكثر من شخص من الممكن أن يكون قد وضع له السم فى طعامه أو شرابه . فواحد من تلامذته اكتشف أن موتسارت كان على علاقة بزوجته . . وأن هذا الطالب كان على علاقة بزوجة موتسارت !

وقالوا : إن واحدا من أصدقائه قد اكتشف العلاقة الآثمة بين الموسيقار العظيم وزوجته ، ولذلك فبعد وفاة موتسارت بيوم واحد قام هذا الزوج المخدوع وشوه وجه زوجته بسكين .. ثم قتل نفسه !

وقيل : إن سبب وفاة موتسارت أن الموسيقار الإيطالى ساليبرى هو الذى قتله حسدا وحقدا عليه ..

ولكن السبب الحقيقى للوفاة هو إصابة موتسارت بالحمى الروماتيزمية وأن الأطباء قد قرروا (فصد) دمه .. وإحداث نزيف صناعى لعل هذا يشفيه من مرضه - وهى غلطة طبية تقليدية !

وقالوا : إن موتسارت على الرغم من أن موسيقاه الرقيقة الجميلة كانت بداية لعصر الرومانسية ، فإن مؤرخين آخرين قالوا : بل كان شابا محافظا على كل القواعد والأصول .. ولكن فى حياته العادية لم يكن تقليديا . فقد كان متحررا لأقصى درجة .. بل ثوريا !

وهذا واضح فى إحدى الأوبرات التى ختم فصلها الثانى بأحد هتافات الثورة الفرنسية : تحيا الحرية !

وكان كذابا فى كل ما يتعلق بكسبه المادى .. فإذا سأله أبوه : كيف لا يكسب وكيف لا يعطى دروسا خصوصية ، كان يرد على ذلك بأن حالته المالية ليس أحسن منها .. وإذا طلب أبوه مساعدة مادية شكا موتسارت من أنه لا يكسب وأن كل الفنانين حاقدون على عظمته . وأنه يقترض من كل أصدقائه وجيرانه !

صحيح أنه كان يكره السياسة .. فلم تكن له حياة اجتماعية من أى نوع .. وإنما كان يعيش فى عزلة تامة : من البيت للكباريه ومن الكباريه إلى البيت إلى المسرح .. ولو سألوه : من الذى يحكم فرنسا فإنه لا يعرف .. ولكن يبدو أن السياسة هى التى لن تتركه . فأثناء حكم هتلر كانوا يعزفون موسيقاه فى كل المناسبات .. وكان هتلر يصفه بأنه العبقرى الألمانى مائة فى المائة .. وكان اليهود يعزفون موسيقاه فى معسكرات الاعتقال رغم الصرخات التى تخرق الآذان !

وعمدة فيينا - أخيرا - افتتح مهرجان موتسارت يوم ٢ يناير الماضى .. ولم يشأ أن يدعو رئيس الجمهورية فالدهايم فقد كان متهما بالنازية .. والليلة الختامية لهذا المهرجان فى ديسمبر القادم ، فلن يحضرها فالدهايم !

ولم يكن موتسارت يعرف شيئا عن الفلسفة ، وسمع عن مدرسة فلسفية ألمانية أو إيطالية . .

ولكن الفيلسوف الوجودى الدنمركى سيرن كيركجار قال : إنما أحسست بتفاهة الحياة وعدم جدوى العبقرية من موسيقى موتسارت !

والذى استمع إلى موسيقى موتسارت يدهشه جدا أن يجد مثل هذه العبارة للفيلسوف الوجودى العظيم ، ففى موسيقاه مرح وخفة وبريق وحياة . . لا فيها ضياع ولا فيها ملل ولا نتيجتها قرف !

* * *

وكانت زوجته كونستانسه تقول : إنه فى آخر أيامه قد أصيب بالهذيان وأنه كان يرى الأشباح ويتحدث إليها . . وقالت فى كتابها الذى ألفته عنه : إنه أصيب بالجنون . .

ولكن أثبت المؤرخون بعد ذلك أن الأشباح التى كان يراها موتسارت حقيقة وليست وهما . . فقد كان يجىء إليه شخص يرتدى الملابس السوداء وقد وضع قناعا على وجهه حتى لا يعرفه . . وكان يطلب منه لحنا جنائزيا ليعزفوه أثناء جنازة أحد الأغنياء . وطلب هذا الغنى ألا يذكر أحد اسمه مقابل مبلغ من المال . وكان موتسارت مريضا وحيدا ـ تركته زوجته وذهبت لبيت أمها . . ووعد موتسارت أن يفرغ من هذا اللحن بعد شهر . وحان الشهر . . ولم يفرغ من هذا اللحن . . وعاوده الرجل الغامض أو كما كان يسميه موتسارت : الشبح الأسود المخيف . . فوجده قد كتب جزءا من المارش الجنائزى . ثم طلب موتسارت أحد تلامذته لكى يملى عليه اللحن . . ومات دون أن يكمله وإن كان قد أعطى لتلميذه كل التعليمات لإكماله . .

وعرفنا فيما بعد أن هذا الشخص الغامض كان موفدا من مؤلف موسيقى فى ذلك الوقت اعتاد على أن يسرق أعمال الآخرين وينسبها إلى نفسه !

وشاء القدر ـ كما كان موتسارت يتوقع ـ أن يكون اللحن الجنائزى لوفاته من تأليفه هو !! . .

وكان من الممكن أن تخلق له الحمى أشباحا من كل لون ونوع . . ومن الممكن أن تكون على صورة البقال والجزار والنجار وصاحب البيت . وأهم من كل ذلك أن

تكون هذه الأشباح قد اتخذت صورة والده .. الذى كان يخافه كثيرا .. وقد ظهرت صورة والده فى كثير من الأوبرات التى أبدعها ..

وقد وصف ساليبرى الموسيقار الحاقد عليه والذى اتهموه بأنه قتل موتسارت : أن الله قد جعل موتسارت أعظم المبدعين حيا وميتا .. حتى آخر أنفاسه كانت أروع دموع نزلت من عينى فنان .. إن الرعشة فى أصابعه .. والرجفة فى عينيه استطاع أن يطلقها إعصارا يهز القلوب حزنا عليه .. إن أسفى وندمى والجحيم فى أعماقى لا ينطفئ أبدا .. لقد أضاء موتسارت الدنيا وأحرقنى فحما ودخانا ورمادا !

وقد وصفه الموسيقار الألمانى العظيم فاجنر : إنه موسيقار ألمانى عظيم .. عبقرى ؟ من المؤكد أنه كذلك . وقد استطاع هذا الموسيقار الألمانى موتسارت أن يرتفع بمستوى الأوبرا الإيطالية إلى أسمى درجات الكمال !

وقال عنه اشتراوس : لا أعرف كيف يكون طعم الحياة ، إذا لم يكن بيننا موتسارت !

وقال الموسيقار الإيطالى فردى : من أصابع هذا الموسيقار العبقرى يتفجر الضياء والبريق والبركة والخلود !

* * *

عبقرى ؟

نعم ! ولكن ما هى العبقرية ؟

العبقرية هى أسمى مراتب الإبداع ..

وهناك فرق بين الموهوب والعبقرى . فالطفل الذى يعزف ببراعة على البيانو وهو فى الخامسة أو السادسة : موهوب ..

ولكن الذى يؤلف الموسيقى فى هذه السن ويكون جديدا مبدعا ، فهذا هو العبقرى . فالعبقرى هو الشخص الموهوب الذى يأتى بجديد ينفرد به وله قيمة تاريخية باقية فى ذاكرة الشعوب ..

أو بعبارة أخرى : العبقرى هو الشخص الذى لديه القدرة على الإبداع فى مجالات لم يسبقه إليها أحد .

وقد تؤدى هذه القدرة الفائقة إلى زلزلة صاحبها جسميا ونفسيا واجتماعيا .

ولذلك كان بين العباقرة شذوذ . . اجتماعى أو بيولوجى أو نفسى . .

ولذلك نادى العالم الإيطالى لمبروزو : بأن العبقرية شذوذ . . تماما كما أن الجريمة والجنون شذوذ . . أو فيها قدر من الشذوذ . .

والعبقرية شرارة حارقة بسبب الصراع بين الشخص الموهوب والبيئة . . تماما كما يتولد البرق والرعد من سحب سالبة الكهرباء وسحب موجبة !

وكانوا يتهمون موتسارت بأنه لا يكتب . . ولا يبدع . . وإنما هناك قوى خفية تملى عليه إملاء . .

وهذا المعنى يجعل العبقرية من الخرافات والخزعبلات . ولكن العبقرية نشاط رفيع فى غاية الوعى . . فالعبقرية ٩٩٪ عرق و ١٪ أرق !

لقد سئل المخترع الأمريكى العظيم أديسون فقال : لم أكتشف شيئا بالمصادفة ، ولم أخترع شيئا بالمصادفة ، وإنما كل المعانى والصور الجديدة قد جاءت أثناء العمل الشاق والأرق الطويل !

فمن السهل أن تتعرف على العبقرى فى زمانك : إنه الشخص اللامع المبدع الذى يكرهه كل المؤلفين والنقاد !

إن الطفل الفرنسى العبقرى باسكال منعه أبوه من دراسة الهندسة والجبر وطلب إليه أن يتفرغ لدراسة الدين . . فما كان من هذا الطفل العبقرى إلا أن ابتدع لنفسه نظاما هندسيا جديدا من أوله لآخره !

* * *

وفى اللغة العربية نقول عن (العبقرى) أى الشخص الذى يأتى بأشياء خارقة . . فكلمة عبقرى مأخوذة من مكان فى الصحراء تسكنه العفاريت اسمه : عبقر . . فهو عبقرى كأنه من العفاريت . . أى له قدرة غير عادية وموهبة فريدة . .

وكل شىء جميل جدا يصفه العرب بأنه عبقرى الجمال والذوق . .

وفى اليمن مدينة اسمها « عبقر » هذه المدينة اشتهرت بصناعة السجاد البديع ذى الألوان الزاهية . فيوصف القماش والسجاد بأنه عبقرى ، أو كأنه عبقرى أى يتصف بكل الصفات البديعة . . كأنه مصنوع فى مدينة عبقر اليمنية !

* * *

وسوف تشترك مسارح الدنيا فى الاحتفال بالطفل المعجزة موتسارت . . فتعرض معظم أعماله ، وتعرض صورا من خطه الجميل . . وصورا له وتماثيل . .

ولكن مدينة فيينا هى التى سوف تعرض له جمجمته . . وقد تأكد العلماء من أنها للموسيقار العظيم . .

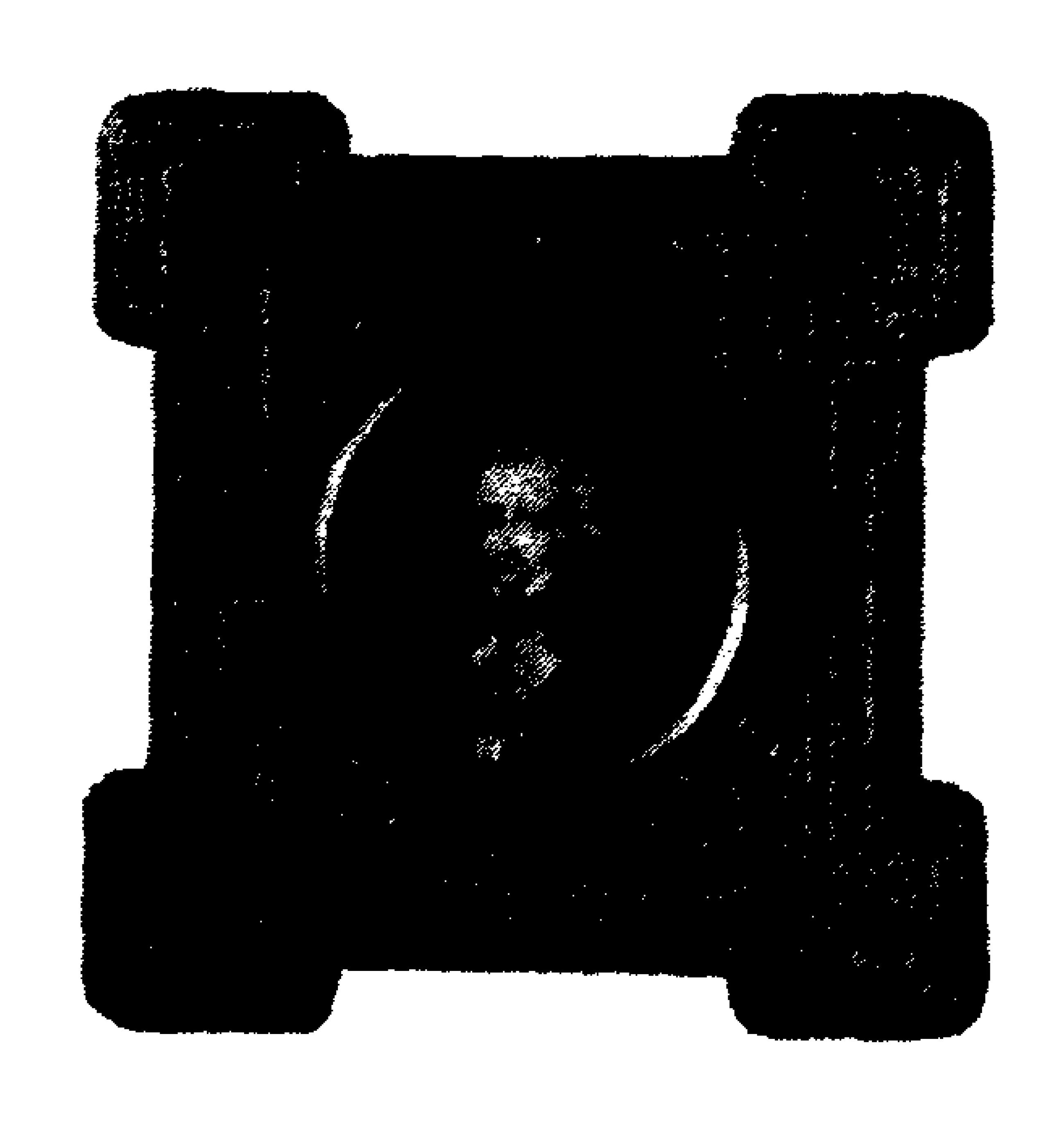
وهناك مدارس فى النقد لأعمال موتسارت . . كلها تقف مبهورة أمام الآثار الفنية الخالدة التى تركها موتسارت . .

مدرسة ترى أنه من الأمانة عرضها وعزفها كما كتبها ، وبنفس الآلات التى كانت مستخدمة فى زمانه . .

ومدرسة ترى أن فى العصر الحديث توافرت له آلات متطورة وأجهزة إلكترونية وعدد كبير من العازفين . . كل ذلك سوف يجعل موسيقى موتسارت أجمل وأمتع وأفخم وأروع . . وليس هذا تغييرا فى النص الموسيقى ، وإنما هو خدمة معاصرة لنص قديم . . ولو كان موتسارت معاصرا لاستخدم كل هذه الأدوات التى تضيف إلى معانيه ثراء ، وإلى ألوانه ظلالا وضياء وعطرا !

ومدرسة ثالثة ترى أنه يمكن إدخال بعض التعديلات الصغيرة التى أدت السرعة فى الإبداع إلى عدم الالتفات إليها . . وموتسارت مثل الشاعر الإنجليزى العظيم شيكسبير . لن يقلل من عظمته تصحيح بعض الأخطاء الإملائية أو التاريخية التى وقع فيها - فموتسارت لم يذهب إلى مدرسة ولا عرف الكثير من القواعد . . ولكن لديه ما ليس عند المدرسين والمؤرخين والنقاد . . لديه البريق الإبداعى والفيضان المبارك !

أما شركات الكاسيتات فى الدنيا فهى تتسابق فى نشر أعماله كلها فى كاسيتات وأسطوانات . . ويقدر الخبراء بأن مؤلفات موتسارت تباع بثلاثة آلاف مليون دولار . . وأن السياحة الفنية سوف تعود على النمسا بألف مليون دولار .



إنه أول وآخر طفل معجزة خلقه الله دليلا على عظمته وعميق حكمته ، وعلى أنه هبة السماء إلى الأرض . . وإن لم يكن هو شخصيا قد أحس بهذه النعمة وذاك النعيم ! .

وهذا هو التاريخ الرسمى !



موتسارت مثل كل عبقرية فى التاريخ قد التفت حوله الأكاذيب . .

شيكسبير العظيم قالوا : إنه ليس هو الذى ألف مسرحياته . . وإنما كثيرون . وليس هذا صحيحا !

موتسارت قالوا : إنه لا يكتب وإنما هو يسمع أصواتًا تملى عليه . . هذه هى أصوات العفاريت . .

ولذلك فعندما ذهب إلى كبير الأساقفة فى نابلى طلبوا إليه أن يدخل غرفة وأن يترك الباب مفتوحًا لكى يروا من الذى يملى عليه . . ثم طلبوا إليه أن يغلق الباب ويكتب على حريته . . ودفعوا باثنين من القساوسة يتخفيان وراء الستائر وينظران إليه من حين إلى آخر . .

فلم يجدا شيئًا ! . .

وكان هناك اعتقاد فى ذلك الوقت أن الإنسان الذى يركبه عفريت إذا فاجأه أحد وصرخ فى أذنه فإن العفريت يقع من فوقه ويتركه . . فكانوا يدخلون على أطراف أصابعهم ويصرخون . . ولكن موتسارت الطفل كان يبكى . . ثم يتجه إلى كتابة الروائع التى يعجز عنها الكبار !

فلا عفاريت . . وإنما هى العبقرية المبكرة الفريدة !

* * *

وقالوا أيضًا : إنه عاش ومات فقيرًا . .

ولكن الحقيقة أنه عاش مفلسًا ، لا لأنه لم يكن يجد الفلوس . . بل لأنه كان مسرفًا جدا . . فكان يتقاضى أكثر من مرتب فى وقت واحد . . من القصر باعتباره مايسترو الفرقة الموسيقية . . ومايسترو لأوركسترا الكنيسة . . ومرتبًا ثالثًا من أحد النبلاء . . ولكن مشكلة موتسارت أنه يعرف أن للفلوس صفة واحدة هى أنه إذا اقترب منها تطير . . وطارت ولم يجدها . . ولكى يخفى سفاهته كان يدعى دائمًا أنه بلا فلوس . وكان من عادة كبار الموسيقيين فى زمانه أن يكون لهم تلامذة . . دروس خصوصية . . والتلامذة عادة من أولاد النبلاء . ولم يتخذ تلميذًا واحدًا ، فلم يكن فى حاجة إلى التلامذة ، وليس عنده وقت للتدريس ، فوقته كله للإبداع ليلاً ونهاراً !

وكان يقال : إن موتسارت يكتب عددًا من النسخ للعمل الموسيقى الواحد . . وليس صحيحًا مطلقًا . فهو كان يحفظ الموسيقى فى دماغه . . وينهض من نومه وقد حفظها تمامًا فيجلس للكتابة دون أن يشطب نوتة واحدة . . أما الورقة التى عثروا عليها بخط آخر . . فهى لأحد تلامذته يبدو أنه حاول أن ينقل بعض الصفحات . . ثم توقف فجأة عن إكمالها ـ لأسباب لا نعرفها !

وهو على عكس جميع الموسيقيين العظماء . .

فالموسيقار العظيم بيتهوفن يكتب ويشطب ويشطب ثم يمزق الأوراق ويعود ويكتب ويشطب ، وكان يجد صعوبة فى قراءة ما يكتبه لأنه يكتب بسرعة هائلة . . أسرع من أصابعه ومن عيون الواقفين إلى جواره يحاولون أن يقرءوا ما تكتبه الأبهة والعظمة الموسيقية !

* * *

هل كان ماسونيا ؟

نعم . قد تأثر بأحد المشتغلين بالإدارة المسرحية . . وانضم موتسارت إلى هذه الجماعة . وجاء فى دفاترها أنه حضر جلسة واحدة . . ولكنه لم يستطع أن يجلس على بعضه . . فكان يدق بأصابعه على الحائط . . ثم على الباب . . ثم يدندن . . فأخرجوه من الاجتماع بعد دقائق . . وقد ثاروا عليه عندما وجدوا كل أسرار الماسونية فى أوبرا (الناى السحرى) آخر أعماله البديعة . .

ثم انضم أبوه إلى هذه الجماعة ، وكان الدافع عند الأب هو خوفه على ابنه . . فأراد أن يعرف ما الذى يفعله هؤلاء الناس الغامضون . . خاف أن يفسدوا عبقرية

الابن وأن يشغلوه بالخزعبلات . . فموتسارت عبقرى عظيم ، ولكنه طفل . . أو شاب صغير . . عاش طفلاً ومات طفلاً أيضًا . ولم يعد الأب يشارك فى ندوات هذه الجماعة رغم محاولاتهم الكثيرة . . واتهموا الأب بأنه هو الذى أوعز لابنه أن يترك هذه الجماعة الغامضة الأهداف !

وقد قال الناقد الموسيقى الكبير كارل : إنه لا خوف على عبقرية موتسارت . . فهى أكبر من كل الظروف . فالظروف التى عاش فيها موتسارت تقتل أية موهبة . . صحيح أن أباه المايسترو الإمبراطورى قد علمه كل فنون العزف والتأليف . . ولكن الظروف بعد ذلك كانت قادرة على كسر رقبة أية موهبة . . ولكن عبقريته هى التى صانته من الجوع ومن المرض . . إنها أقوى من كل شىء فى عضلاته وأعصابه ومعدته . . إنها نوع من « الحضرة الإلهية » فى عظام وعضلات وأعصاب ووجدان هذا الطفل ! .

* * *

وقد أثبت علماء الفلك أن يوم وفاة موتسارت لم يكن لا مطيرًا ولا عاصفًا . فلو شاءت زوجته وأصدقاؤه أن يسيروا فى جنازته لفعلوا . ولكن أحدًا لم يفعل . إذن لم يكن المطر ولا العواصف ولا الرعد ولا البرق هى التى منعت الجميع من السير فى الجنازة . .

وقيل : إن موتسارت كان على خلاف مع زوجته . ولذلك هجرت البيت وأخذت معها ولدها . وتركته وحده مريضًا . فلما مات لم يكن إلى جواره إلا واحد من تلامذته .

ولكن الحقيقة هى أن زوجته كونستانسه كانت موجودة . ومع ذلك لم تسر فى جنازته . أما السبب الحقيقى فهو أن موتسارت كان يعيش فى أوج حركة التنوير فى أوروبا . . وهذه الحركة كانت ضد الخرافات التى ترسبت من العصور الوسطى . . وضد العادات القديمة السخيفة . ومن بين هذه العادات السخيفة : الجنازات والسير فيها والبكاء على الميت ، ولذلك كانت العادة الجديدة ألا تكون هناك جنازات . .

ثم إن موتسارت لم يدفن ليلاً ، فقد كان القانون يقضى بأن يكون الدفن نهارًا . ولذلك بقيت جثة موتسارت حتى الصباح . وحملوها مع آخرين إلى المقابر . .

وليس صحيحًا أن موتسارت قد دفن فى مقابر الفقراء والمجهولين . . وإنما كان له قبر معروف وكانت المعجبات و المعجبون يضعون عليه الزهور . .

وبعد ١٨ سنة من وفاته ـ أى عندما تزوجت أرملته أحد الدبلوماسيين الدنمركيين ـ ذهبت لتقيم له قبرًا خاصا بعد أن تجمع لديها مال كثير من حق الأداء العلنى لأعماله العظيمة .

وكانت قد فرغت من كتاب لها عن حياة زوجها موتسارت ـ أول كتاب عن العبقرى العظيم . وهذا الكتاب صورة جديدة من الظلم القائم على حسن النية والسذاجة والجهل . فهى ساذجة جاهلة . وإن كانت سيدة أعمال فى غاية الشطارة !

فهى لم تفهم الكثير من سلوكيات ذلك الشاب الذى ليس تقليديا فى كل تصرفاته . . فقد فهمت تحركه الكثير أثناء النوم والتحدث بصوت مرتفع أن عليه عفريتا . . ثم فهمت أنه عندما يدق بطنه ويحرك يديه عليها يمينًا ويسارًا بأنه يطرد العفاريت التى استقرت على شكل مغص وغازات فى أحشائه . مشكلة موتسارت أنه بسبب التوتر الشديد كان مصابًا بإمساك مزمن وتقلص معوى ومعدى وانتفاخ بسبب سوء التغذية واضطراب مواعيد الأكل والنوم والإسراف فى شرب النبيذ !

وقيل : إنه أصيب بمرض سرى . . زهرى أو سيلان . وهذا ما لم يحدث قط . . فهو رجل متدين جدا . ويخاف على نفسه من المرض . وهذا هو السر فى أنه تعجل الزواج برغم مخالفة ذلك لرغبة والده . . أما أمه التى توفيت فى باريس قبل زواجه بأربع سنوات ، فهى مثل كل أم تريد لابنها الموهوب أن يستقر وأن يكون له بيت . . وأن تفرح بأولاده . . ولكنها ـ رغم أنها شخصية قوية جدا ـ لم تجرؤ أن تخالف زوجها المايسترو والأستاذ ليوبولد موتسارت . .

أما سبب الوفاة فهو أنه أصيب بحمى روماتيزمية . . وأصيب بالروماتويد فى مفاصله . . وسبب ذلك هو سوء التغذية والإرهاق الشديد . . أى القعود الطويل . . أما العلاج فى ذلك الوقت فهو إسالة دم المريض . . أى ترك الدم يسيل منه . . ويقال : إنه أصيب بالسكر ، والحقيقة أنه لم يصب بالسكر ، فقد لاحظ الطبيبان اللذان عالجاه أن الدم كان يتجلط بسرعة وكان قاتم اللون ـ أى ليس مصابًا بالسكر . .

وفى إحدى حالات الإغماء عندما لاحظ موتسارت كوبًا قد امتلأ بالدم مد يده لقد ظن أنه نبيذ !

وبسبب الضعف الشديد الذى أصابه لم يكن موتسارت يرى الذين حوله بوضوح . . وكان ينقل عينيه فلا يعرف أحدًا منهم . . وكانت زوجته تبكى ولا تعرف أن السبب هو الأنيميا الحادة التى أصابته !

وكان من عادة موتسارت أن يصف الدواء للذين حوله . . كأنه عبقرى فى كل شىء !

ويقال : إن واحدًا من تلامذته قد توفى بسبب وصفة طبية خاطئة !

لقد كان تشرشل يفعل ذلك وهو المسئول عن الأمراض التى أصابت الوزراء الذين حوله . . وأيزنهاور بصفة خاصة . . فقد كان تشرشل يدعى أنه خبير بشئون المعدة والأمعاء . . ولم يكن يأخذ بتشخيص الأطباء !

وكذلك كان الأستاذ العقاد . .حتى قلت عنه يوم وفاته : إن العقاد الطبيب هو الذى قتل العقاد الأديب !

أما الذى كان يعالجنا من المصران الغليظ فهو الموسيقار محمد عبد الوهاب . . كان أستاذًا فى علاج كل ما يتعلق بالمصران الغليظ . . فكنت أتردد على الطبيب الكبير على المفتى . وكان عبد الوهاب يسألنى . . فلا أرد فيقول : أقول لك أنا . . لا تأكل الملوخية والباميا والسبانخ . والزبادى وكل أنواع الخس والجرجير والفجل والبصل . . ولا تشرب القهوة . . الشاى لا مانع . . ولا تأكل الآيس كريم . . ويجب أن تتفادى الإسهال وتتفادى الإمساك أيضًا . . صحيح ؟ ألم يقل لك ذلك ؟ أنا أعرف . . أنا عندى تجربة ، ولكن الدكاترة عندهم معلومات . . فاسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا !

وكان محمد عبد الوهاب يضع الحبوب الملينة فى جيب والحبوب التى تمسك البطن فى جيب آخر . . وأخطأ فأعطى كامل الشناوى المصاب بالإسهال خمس حبات ملينة . . وكانت ليلة سوداء لا نام كامل الشناوى ولا عبد الوهاب ولا عشرة من الصحفيين الشبان !

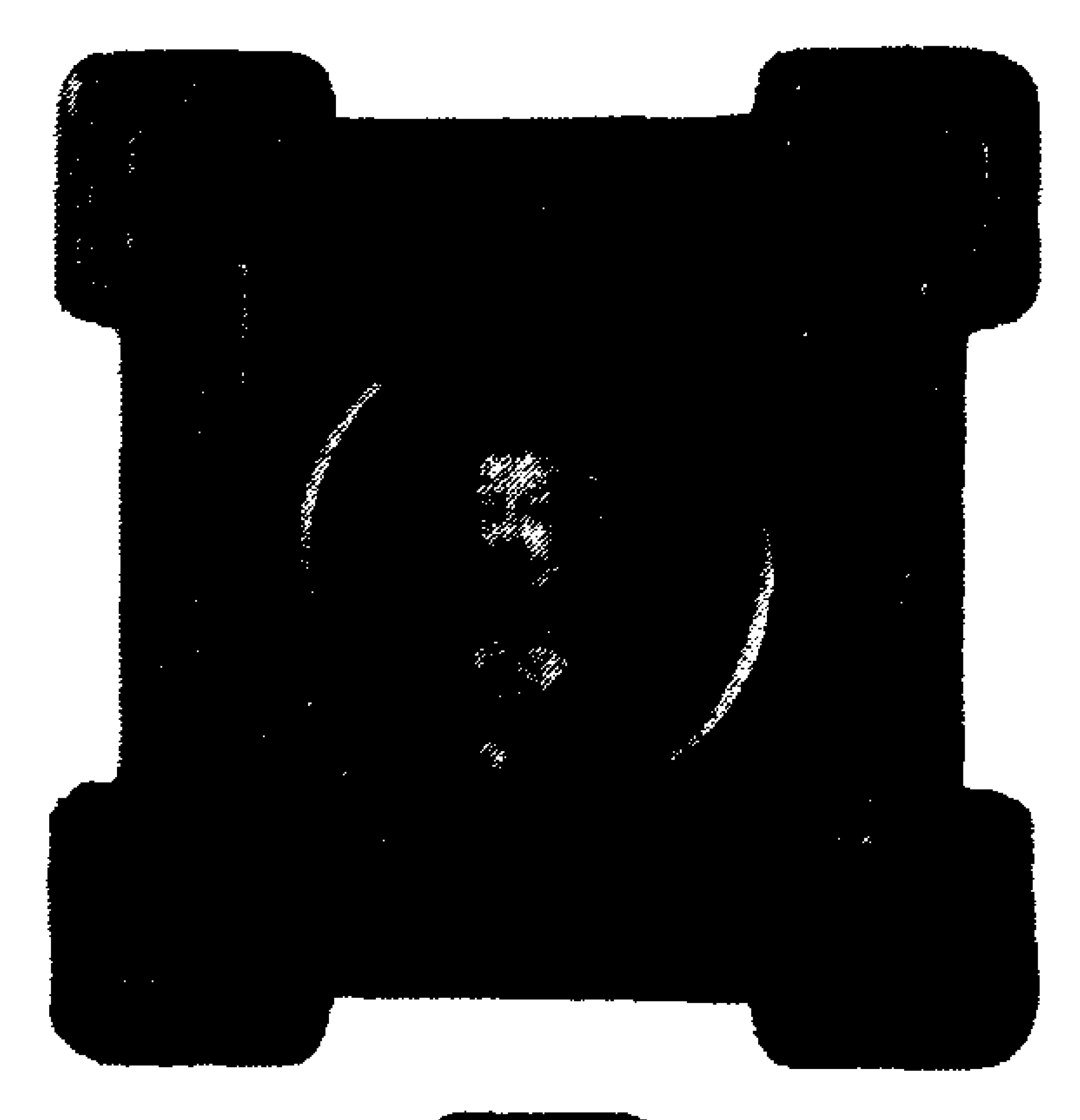
* * *

اللوحة الوحيدة الباقية لموتسارت هى التى رسمها شخص نكرة . . دخل بهذه اللوحة التاريخ . هذا الرسام هو عديله ، أى زوج أخت كونستانسه . كان مدرسًا للرسم .

وبقية اللوحات والتماثيل قد أخذت عن هذه اللوحة ومن أوصاف المصاحبين له وما كتبته زوجته من أوصاف غير دقيقة . . شيء عجيب أن تكون السيدة التى عايشته ليلاً ونهارًا ، أقل الناس إدراكا لعظمته وأقل الناس قدرة على وصف ملامحه . . إنها تراه من خلال مشاكل نقص الفلوس أولا بأول . . ومن خلال النزاعات حوله وبسبب الحقد عليه . . فزوجة موتسارت نائمة معظم الوقت . . وحامل طوال السنوات التسع التى عاشتها معه . . فهى تلد وأطفالها يموتون . . وليس عنده وقت لأن يصرخ أو يدفن . . فهو مشغول ببنات أفكاره التى عاشت بعده مئات وسوف تعيش ألوف السنين !

لم يكن موتسارت يخيف زوجته وهي نائمة . . فقد كانت تصحو من (عز) النوم على صوت ضربات على الباب أو على النافذة . . ثم عرفت أن أسنانه تصطك بعضها فى بعض بشدة أثناء النوم . . فيصحو من نومه يضحك على خوفها وتعلقها به وإخفاء رأسها تحت الغطاء . . وحكمت على موتسارت إذا نام أن يضع المخدة بين أسنانه حتى لا يكون له صوت . . وكثيرًا ما وقعت المخدة من فمه . . وجعلت أسنانه تصطك . . فلم يجد مفرًا من أن ينام بعيدًا عنها . فكان يفاجأ بأنها قد تركت السرير وجاءت تلتصق به . . فتصطك أسنانه فتصرخ فزعًا وتعود إلى السرير كل ليلة !

وكان الجيران يصابون بالدهشة لجنون هذين الزوجين . . ففى كثير من الليالى يلاحظون أن الزوجين يصرخان ثم يستغرقان فى الضحك والقفز فوق السرير والمقاعد . . فقد أصيبت زوجة موتسارت بنفس الحالة . . فهى الأخرى تصحو من نومها على أسنانها تصطك بعضها فى بعض . . وفى نفس الوقت . . فيصحوان من النوم ويضحكان كل ليلة !



أخيراً زواج فيجارو من سوزانا ؟!



هناك أناس عندهم القدرة على اتخاذ القرار المصيرى .. بمعنى أن القرار الذى يتخذه يساوى حياته كلها .. أى هذا القرار .. ولا يهم ما يحدث بعد ذلك .. أو أثناء ذلك .. ولا يكون هذا القرار هو الأول والأخير فى حياته ..

فالشبان الذين قرروا ترجمة (دائرة المعارف الإسلامية) كانوا شجعانا وانتحاريين أيضا .. ولكن فى الشباب تصبح كل القرارات نهائية .. أى إما هذا القرار وإما الموت ..

إنهم محمد ثابت الفندى وأحمد الشناوى وإبراهيم زكى خورشيد وعبد الحميد يونس ..

والذين قرروا ترجمة (قصة الحضارة) للكاتب الأمريكى العظيم ول ديورانت .. إنهم زكى نجيب محمود ومحمد بدران وفؤاد اندراوس ..

والرجل الذى ترجم مقدمة (انحلال الغرب) للفيلسوف الألمانى أوزفالد لراشبنجلز .. إنه من أصعب وأعظم الكتب .. وكان المترجم هو الأستاذ على حسن الهاكع ..

وكذلك د . عبد الرحمن بدوى عندما ترجم (الوجود والعدم) للفيلسوف الوجودى سارتر ..

وعندما قرر ترجمة (الروائع المائة) من أمهات الكتب الأدبية فى الغرب ..

وعندما ترجم أيضا رواية (دون كيخونة) للأديب الأسبانى سرفانتس .. وهى التى ترجمها أيضا د . عبد العزيز الأهوانى ..

والأديب السورى المرحوم سامى الدروبى ، زميلى فى دراسة الفلسفة وصديقى ، الذى ترجم الأعمال الكاملة للأديب الروسى دستوفسكى ..

وعالم الجغرافيا المرحوم د . حسن عثمان الذى ترجم (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى ..

والرجل الفدائى العاشق إلى درجة الجنون الذى ترجم ملحمة (عوليس) للأديب اليونانى كازانتراكس (٤٤ ألف بيت) .. هذا الرجل الإسكندرانى الذى رأيته فى التلفزيون المصرى قد باع ما أمامه وما وراءه .. ولا أعرف اسمه ، ولا إن كان حيا أو أنه هو الآخر قد لحق بهوميروس صاحب الإلياذة والأدويسا أو لحق بالأديب العظيم كازانتراكس مؤلف (زوربا) و (إعادة صلب المسيح) و (العبد لله) ! .

والمفكر النابه الرومانسى جمال حمدان الذى ألف موسوعة « شخصية مصر » ..

لابد أن اتخاذ مثل هذا القرار يتم سرا بين الكاتب ونفسه .. فى الظلام .. فى ساعة عميقة باهرة يقرر الكاتب : إما أن يعيش الآن وإما أن يموت الآن .. ويقرر أنه سوف يعيش ، ويجعل شرط الحياة أن يكون قد فرغ من تأليف أو ترجمة عمل من الأعمال الجليلة ..

وتكون المتعة الحقيقية هى لحظة هذا القرار وأثناء تنفيذه .. وبعد ذلك بلحظات ..

وقد لا يدرى أحد من الناس مدى العذاب والهوان والعرق والأرق ..

ولكن صاحب القرار قد أقسم على السيف الذى وضعه على رقبته .. ولابد أن يفى بهذا الوعد لنفسه وعلى مرأى من الناس ..

* * *

ويوم قررت بينى وبين نفسى أن أترجم كل قصص وروايات الأديب ألبرتومورافيا ، كان أساس هذا القرار أننى أحبه .. وأننى معجب به .. ولكن بعد أن ترجمت له ١٥٠ قصة قصيرة فزعت من أن يكون دورى فى هذه الدنيا « شيال » قصص مورافيا أو (سفرجى) للمائدة الأدبية لمورافيا ..

ولم أجد أحدا فى الفلسفة أو فى الأدب يساوى أن أقوم من أجله بدور المرشد السياحى ، أشير إليه ، ولا أشير إلى نفسى .. أقدمه وأتراجع أنا .. فإن لى أيضا دورا

فى الفلسفة والأدب ـ ويكفينى أننى مددت ذراعى طويلا أشير إلى أدباء كثيرين ، وفى الإشارة إليهم إشارة إلى مزاجى الأدبى وذوقى الفنى وأعماقى الفلسفية ! .

ووجدت بين أوراقى فصولا ترجمتها للفلاسفة العظماء : كانت وهوم وبرجسون وكيرلجورد وبايسرز وهيدجر وسارتر . . وكلها تدل على أنه كانت عندى قرارات . . أو مشروعات لقرارات أن أقدم كل هؤلاء العباقرة أو بعضهم . . وفى غمرة الانفعال والاندفاع أنسى نفسى من أجلهم ، ثم وجدت أن هذا ظلم أرتضيه لنفسى ، وإعدام لموهبتى وإحياء لتراثهم . . حرام !

وعندما كتبت (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) ، فقد أرخت للعقاد . . والحقيقة أننى أرخت لنفسى ولجيلى من الأدباء والمفكرين فى مواجهة العقاد وطه حسين والمازنى ولطفى السيد وسلامة موسى وحسن البنا وكل فلاسفة الإغريق والعصر الحديث . . فأنا كتبت عن العقاد بقلمى . . أو كتبت عن نفسى بمناسبة العقاد . . ثم وجدت أننى تطوعت فدخلت ظل العقاد وغيره من المفكرين ولذلك أزحت الظل وظهرت برأسى وعقلى وقلبى فى كتابى (عاشوا فى حياتى) . . وفى كتاب (إلا قليلا) وأخيرا فى أحدث كتبى الذى هو مفتاح لكل رحلتى الطويلة فى الأدب والفلسفة وعلم النفس (البقية فى حياتى ـ لوحات على جدران الطفولة) .

وكان أصعب قرار أن أنفتح على نفسى . . وأن أفتح بأظافرى عينى وأذنى . . وأن أزيل الغشاوة من عقلى وقلبى وأن أرى وأن أعبر . . فليس أسهل من الترجمة ونسيان الذات . . وليس أصعب من التعبير عن الذات . واخترت الصعب ولكنه الطريق الصحيح . .

ولكن بعض الناس يرون فى الترجمة الأمينة قرارا يصل إلى حد المعجزة . . أى ينقل أفكار الآخرين بأمانة وجمال صعب جدا . . ولكن هذه الصعوبة ترفع قدرهم وتعلو بشأنهم . . وتضع الذى يترجم إلى جانب الذى يؤلف . . ويقال : ترجمة فلان . . تماما كالمكتشف للقارات نطلق اسمه على القارة التى اكتشفها ، فأمريكا مأخوذة من مكتشفها الإيطالى أمريكو فسبوتشى . .

وهذا التقدير هو الذى يرضى به كل من ينقل إلينا المجهول من قارات الأدب والفكر . . ويستحق منا عظيم التكريم والاحترام . .

وكثيرون قدموا لنا روائع الفكر والأدب ، ورضوا بنصيبهم المتواضع سطرا أو سطرين على غلاف الكتاب . .

ويوم قرأ الشاعر الألمانى جيته الترجمة الفرنسية لمسرحيته الخالدة (فاوست)

قال : إننى فهمت نفسى من هذه الترجمة الفرنسية . . فقد شاء المترجم الفرنسى العظيم أن ينشر الضوء فى أعماقى العاصفة المظلمة !

وهذا كرم من الشاعر الألمانى وعظمة أيضا ، من النادر أن يلقاها مترجم من مؤلف أو مؤرخ !

وتذكرت هذه الأمثلة الرائعة وعشرات غيرها ، يضيق عنها وبها هذا المكان ، عندما تصفحت الترجمة العربية لأوبرا (زواج فيجارو) . . المترجم بلدياتى د . على صادق . . وكأى إنسان متواضع جدا ، لم يقدم نفسه للذين شاهدوا أوبرا « زواج فيجارو » موسيقى العبقرى موتسارت . . فلا أحد عرف من هو المترجم ولا العذاب الذى لقيه سنوات طويلة يراجع الأصل الإيطالى والترجمة الإنجليزية والنص العربى . . ووزن الكلمات والأفعال والعبارات ليكون لها نفس الوزن الموسيقى . .

وإنما طلع علينا د . على صادق مثل شهاب جاء من أعماق الفضاء وأضاء فى سمائنا واختفى . . فلا أحد رآه ولا عرفه ، فالرجل المتواضع العاشق لموتسارت لم يفتح لنا قلبه . . وأسمعنا أناته وأوجاعه . . وإنما قال كلمته ومشى . . قالها فى أوروبا واحترموه وقدروه . . وقالها فى مصر ثم انطلق يعمل طبيبا فى السعودية ؟!

إن هذه الأوبرا التى شاهدناها أربعة فصول على مسرح الأوبرا فى القاهرة باللغة العربية الفصحى . . شىء جديد فريد صعب جدا على الأذن وعلى الذوق المصرى والعربى . . فقد اعتدنا على الألحان العربية التركية . . وليست الأوبرالية التى تتغلب فيها الموسيقى على الحروف فلا تستطيع أن تتابع ما يردده المطربون . . وهذا ما يجعل ظهور مثل هذه الأوبرا الطويلة الصعبة مغامرة تاريخية من فاروق حسنى وزير الثقافة ومن بلدياتى د . طارق على حسن مدير الأوبرا . . ولكن استقبال الناس لها كان تشجيعا واحتراما لعمل صعب فريد . . قام به فنان طبيب متواضع . . وكان . . ودعوة إلى أعمال أخرى على هذا المستوى الرفيع فى الذكرى المئوية الثانية لموتسارت . .

موضوع الأوبرا مأخوذ من مسرحية للأديب الفرنسى بومارشيه . . وهو رجل فنان تاجر فاجر سافل محب للسلام وتاجر للسلاح تنقل كثيرا بين القصور والسجون . . ولكنه عظيم الاحتقار للنبلاء والحامين والقساوسة .

وقد وصف نابليون هذه الأوبرا بأنها بيان ثورى رقيق .

ولذلك اعترض على ظهورها فى فرنسا لويس السادس عشر .

واعترض عليها فى فيينا الإمبراطور يوسف . . وأدخلت عليها تعديلات كثيرة ،

وجردوها من أنيابها وأظافرها حتى تحولت عباراتها من نسور جارحة إلى طيور داجنة .. ولكن هذه الطيور لها مناقير ومخالب .. فوراء هذه العبارات الموسيقية أو وراء المعمار الهندسى الموسيقى تتألق النيران المشتعلة .. فبطل هذه الأوبرا التى كتبها الشاعر الإيطالى دابونتى شاب ذكى جدا اسمه فيجارو .. هذا الشاب فى صراع مع سيده .. والضحية هى خطيبته .. سوزانا .. فالسيد يرى أن من حقه التاريخى أن يكون رجلها فى الليلة الأولى لشهر العسل .. وكان ذلك من حقوق السادة على رعاياهم .. وكان هذا السيد قد ألغى هذا الحق .. ولكنه عاد فتمسك به .. ويظهر ذكاء فيجارو فى عدد كبير من الحيل والمقالب والدسائس التى توقع بين الجميع .. وتنتهى الفصول الأربعة لهذه الكوميديا الطويلة الصعبة بزواج فيجارو من عروسه سوزانا .

وهذه النهاية السعيدة تجىء فى ساعات طويلة من الحوار المتدفق فى أربعة فصول .. ويرى علماء الموسيقى أن هذه الأوبرا هى أكمل ما كتب موسيقار فى كل العصور .. وكان المستمعون إليها فى براغ يستعيدون بعض لوحاتها الموسيقية .. فكانت تستغرق أربع أو خمس ساعات .

* * *

وإذا أنت استمعت إلى هذه الأوبرا فإن جمال الموسيقى يغلب على كل كلام .. ويجب ألا تلوم نفسك إذا أنت لم تتذوق الغناء الأوبرالى .. أو إذا لم تعرف بوضوح ماذا يقول هؤلاء المطربون .. فهى شىء غريب على الأذن المصرية أو العربية .. ولا عيب فيك ، ولا عيب فيها .. ولكن أنت لم تعتد على ذلك .. وهذه واحدة من المحاولات الصعبة لنقل التراث الكلاسيكى فى الموسيقى والغناء إلى أذن اعتادت الألحان وتدربت طويلاً على الأغنية والموال والتراتيل ..

* * *

ولا شك أن صعوبات كثيرة قد اعترضت تدريب وتنفيذ هذه الأوبرا الكوميدية .. ولكن ظهورها على مسرح الأوبرا وفى أماكن أخرى ، يعد إنجازا عظيما .. ولا أقول إنها سوف تصبح من مكونات الذوق العام فى مصر أو فى غيرها .. فإذا تفتحت وردة واحدة ، فإن هذا لا يدل على قدوم الربيع .. ولكن لابد من تجارب أخرى كثيرة وتمهيد وتدريب وتعميق قبل ذلك حتى نصبح قادرين على تذوق مثل هذه الأعمال الضخمة ، ليس اليوم .. ولا غدا .. ولكن بعد غد .

إننى أرجو د . على صادق أن يرجع بقلمه إلى إعادة صياغة الأوبرا كلها .. ففيها أخطاء نحوية شنيعة .. ثم صياغتها العربية الصعبة فيها كثير من الركاكة .

إننى أعرف الصعوبات الهائلة التى واجهته ، ولكن بعد أن تحقق له هذا النصر العظيم فلن يطول وقته ، أو وقت أى إنسان آخر فى إنقاذ النص الشعرى من أخطاء فادحة .

وكنت أظن أن هذه الأخطاء موجودة فقط فى (النص) المكتوب .. ولكن فوجئت بأنها أيضا على ألسنة المطربين .

أخطاء نحوية تصاحبها موسيقى موتسارت ـ موسيقى كاملة الأوصاف .. مثل هذه العبارات :

لا تجعل الظن يملأ قلبك .. أو فلتترك الظن لا تجعل الظن يملأ قلبك ..

يقصد : الشك طبعا .

يقول فيجارو : ماذا ؟ ألم (يلغى) الكونت هذا الحق ؟

وتقول سوزانا : نعم .. والآن يندم ويريد أن يعوض هذا الحق معى !

أما هذا الحق فهو أن السيد من حقه أن يمضى الليلة الأولى مع العروس .. وفيجارو يتساءل : ألم (يلغ) الكونت هذا الحق ؟!

والجواب يكون : بلى .. لقد غير رأيه ويريد أن يستأنف هذا الحق معى ـ وأنا أنقل عن النص الإيطالى والإنجليزى .

أو مثل هذه العبارات الركيكة الخاطئة نحويا :

ولكن ضرورى تقولين لى كل شىء .

كم فى ارتباك سوف تعيش عندما كنت (تعطيها) الدروس .. (اعطيه) لى يا سوزانا .. (هاتيه) بربك .. احكى عن الحب ليلا ، للماء للشمس .. للبدر للطير للريح .. (يحملوا) صدى صوتى إلى كل الآفاق .. إنه ينظر إليها (بكثرة) .. (أهى رأسى) يخرج (الفلاحين) والفلاحات .. (يستوقفاه) .. من قد رأوا الموت .. لا (يناموا) ولا (يخافوا) ..

وغير ذلك كثير .. أما علاجها فسهل جدا .

ولكن هذه الأخطاء الصغيرة تفسد هذا العمل الجليل .

فليضف د . على صادق بعض العرق إلى سلسلة العذاب المجيد ، ليحذف ويضيف ويصحح اسم إن وخبر كان .. وهو قادر على ذلك .. مع عظيم الاحترام له والإعجاب به والإشادة بفضله وصموده على تنفيذ هذا القرار الانتحارى المصيرى !

موتسارت :

ليس من الخالدين المائة !

تلقيت عددا كبيرا من رسائل القراء تعليقا على ما كتبت عن الموسيقار المعجزة موتسارت . .

سؤال من الأب جورج سوراكى أنه لاحظ أن موتسارت رغم أنه كان عطوفا وكان محبا لوالديه ، وخائفا من والده طول عمره ، لم يكن يذهب إلى الكنيسة أو حتى جاء ذكرها فى خطاباته ؟!

وهذه الملاحظة تذكرنى بما كتبه أحد القراء أيضا تعليقا على كتابى « فى صالون العقاد ـ كانت لنا أيام » فقد كنا نلتقى فى صالون العقاد كل يوم جمعة . . من التاسعة حتى الثانية بعد الظهر . . يقول : إنه لم يلاحظ أن أحدا من ضيوف العقاد قد انسحب ليؤدى صلاة الجمعة . . لا الضيوف ولا الأستاذ !

وكتبت الآنسة كاميليا حسين أمين أنها لم تقرأ عن أية مغامرات للموسيقار موتسارت . . رغم أن كل شىء يدل على أنه كان ذئبا . . وطبيعى جدا أن تطارده أجمل الجميلات فى كل الدنيا . .

ولكن موتسارت كان غارقا فى الإبداع يشغله ليلا ونهارا ، حتى إذا ذهب إلى أى مكان فيه بيانو فإنه يترك الطام والشراب ويواصل العزف ، فهو لا يقوى على أن يرى بيانو دون أن يعزف عليه ، أو يرى كأسا دون أن يشربها ، أو يرى جميلة دون أن يقبلها ـ كل ذلك فى وقت واحد !

وتلقيت من د . إسماعيل نبيل محمد فهيم :

مقالكم الممتع عن « موتسارت » . . جعلنى أعيد قراءة الفقرة التى تذكر فيها : « وأغرب من ذلك أن موتسارت كان يجد متعة فى وصف « البول والبراز » . . كيف يتدفق البول والبراز ولونه . . وكذلك الأصوات التى تخرج منه . . إلخ ، ولم أستغرب هذا . . فعملى كطبيب ومشاهداتى الطبية . . تجعلنى أفسر أن موتسارت كان مريضا بالقولون العصبى . . لحدة مزاجه . . وفرط حساسيته . . وهؤلاء المرضى « القولونيون » مشكلتهم تقلصات القولون المستديمة . . وإن خروج الغازات يسبب لهم راحة نفسية كبيرة . . كأنهم تخلصوا من شيء كان ضاغطا على قولونهم . . والمثير حقا . . تمتعهم بذكر طريقة خروج الأصوات . . وراحتهم عند خروجها . . وعند التحدث عنها . . أمام الغير . .

أما تدفق البول . . فهو مشكلة هذا الفنان العاشق للجمال . . وخاصة جمال النساء ، حتى ولو لم يزاول العملية الجنسية . . فالإثارة الجنسية وحدها كافية لإصابته بتضخم البروستاتا . . التى من شأنها إعاقة تدفق البول . . والمساعدة على إحداث الهبوط الكلوى . .

مسكين موتسارت كان مصابا . . بتضخم البروستاتا . . والقولون العصبى . . شأن أغلب العظماء .

وكتب الإخوة بلدياتى الدكاترة : آمال وعبد السلام وفريدة ومحسن الزهيري من مدينة بوسطن الأمريكية : إننا جميعا أكثر الناس حبا للموسيقار موتسارت . . ولنا جميعا حكاية واحدة . فأنت تعلم أن والدتنا نمساوية وأن والدنا قد تعلم فى مدينة جراتس بالنمسا ، وأن أكبر صورة تعلقت على جدران بيتنا فى حى توريل بمدينة المنصورة كانت لموتسارت . ولعلك تذكر أنك أنت الذى غيرت مكانها وأنك الذى جرؤت على استبعاد كل الصور الصغيرة التى حولها . . وكانت وجهة نظرك أن موتسارت كان وحيدا فى دنيا العبقرية الموسيقية فكيف نضع إلى جواره هذه (الصراصير) - الله يسامحك . . فلم تكن هذه الصراصير إلا صورنا ونحن صغار ، ولعلك تذكر أن ماما قد ابتلعت هذه الإهانة . . ولكن تعظيمك لموتسارت غفر لك كل شيء عندها . . ونحن جميعا عشاق لموسيقى موتسارت . . ولانزال نحتفظ فى بيتنا بالفونوغراف العتيق الذى كان عندنا . . والناس هنا ينظرون إليه على أنه تحفة أثرية . . وأنه أهم جهاز فى البيت كله . . ولقد قرأنا مقالاتك وأعجبتنا جدا . . واندهشنا كيف جمعت كل هذه المعلومات - ولكننا لا نستغرب

ذلك . . فنحن أيام الدراسة فى المنصورة كنت أنت الذى تتكلم وتقرأ وتلخص وتعرض علينا ثقافتك الواسعة ونحن نتمشى ابتداء من حى توريل حتى شجرة الدر ذهابا وإيابا عشرين مرة ـ فقد كنا صغارا .

ووالدتى لها ملحوظة تقول : إنه بسبب عظمة موتسارت وبسبب بريق عينيه وذكائه وعبقريته لم يستطع أحد أن يعرف لون عينيه . . لا أحد قد عرف ذلك . . حتى أن مؤرخا كبيرا قال : إن لون عينيه أحيانا أسود وأحيانا عسلى فاتح ؟! ولم يعرف أحد حتى الآن كم كان طوله . . أناس يقولون : إنه قصير . . قزم . . وأناس يقولون : بل متوسط الطول . . ووصفته مؤرخة ألمانية بأنه كان طويلا لدرجة أن كل الذين كانوا يتحدثون إليه كانوا ينظرون إلى أعلى . . والذين كانوا يفعلون ذلك كانوا طوالا . . فهل من المعقول أن يكون موتسارت قزما وأن يكون عملاقا فى نفس الوقت . . وقد طلبت ماما أن نكتب لك وأن نقول : إن بتهوفن وموتسارت وهايدن واشتراوس بسبب رهافة الحس كانوا جميعا يشكون من الهرش فى الذراعين والصدر والرأس . . وأن موتسارت كانت تظهر له دمامل فى أماكن مختلفة من جسمه . . بسبب الهرش المستمر الذى هو بسبب حساسيته الشديدة . .

وماما تبعث إليك بتحياتها وتطلب منك ـ وهذه أمانة ـ أن تهنئ الذين نجحوا فى عرض أوبرا « زواج فيجارو » على مسرح الأوبرا المصرية الجديدة الفخمة . . وتريد أن توجه الشكر للسادة فاروق حسنى وزير الثقافة و د . طارق على حسن مدير الأوبرا والمايسترو السيسى ود . على صادق الذى ترجم الأوبرا شعرا إلى اللغة العربية . . وإلى جميع المطربين والمطربات . . ولك لما كتبته عن بلدياتها العظيم موتسارت ـ فهى أيضا متعصبة للنمسا ، كما أننا جميعا متعصبون للمنصورة !

* * *

وأترك الكلمة الآن للسيد ماجد على الكسار يتحدث عن والده الفنان الكوميدى الطيب الذى أضحكنا كثيرا ولا يزال . فقد نسينا هذا الفنان الرائد فى مناسبات كثيرة :

أفيد سيادتكم أننى أتابع كتاباتكم العظيمة وقرأت بمجلة أكتوبر فى عدد ٧٦٠ بتاريخ ١٩ مايو ١٩٩١ موضوع تحت عنوان « أطفال عظماء » بمناسبة تكريمكم للفنان موتسارت بمرور ٢٠٠ عام على وفاته ، وكان الموضوع دراسة شاملة ـ بانوراما ـ لعظماء الفن والأدب والسياسة وبدا واضحا مدى معرفتكم بدقائق حياة وأعمال هؤلاء الخواجات ، ولكن فى النهاية كان يعصر قلبى دما وحزنا على ما أصاب

عظماء وعباقرة مصر من النسيان والنكران . فقد تعرضت لعالم المسرح ووقفت عند شارلى شابلن فقط ولم تذكر من بين الأطفال العظماء فى مصر العبقرى الفذ معجزة عصره وكل العصور الذى أدهش العالم بفنه وأدائه على خشبة مسرحه وحقق لمصر نهضتها المسرحية حتى أجمع النقاد على تسمية عصره بالعصر الذهبى للمسرح . وحقق للفن الكوميدى نظرة التقدير والاحترام وأصبح له الغلبة بين فنون المسرح بعد أن كان لا وجود له أصلا ، وبعد أن كان نوعا من اللهو . . فقد أشاد به العالم ووصفته فرنسا معقل الكوميديا فى كتابها بعنوان « العودة على الأقدام » للكاتب الفرنسى هنرى بيروه الذى صدر فى فرنسا عام ١٩٢١ فقد وصف على الكسار بأنه على خشبة المسرح يصنع المعجزات . . ويعقد الكاتب الفرنسى فى كتابه مقارنة بينه وبين ما شاهد من فنانين فى مصر أو بلده فرنسا قائلا : لا أظن أنى سمعت أو رأيت ممثلا كوميديا بهذا التفوق . فكان تارة يبدى قوة وعنفا يتميزان بالشعبية ، وتارة يبدى سلبية مذهلة . . حقا إنها عبقرية ، ثم يأتى « دنى دنيس » عميد الكوميديا فرانيز ليدفع هذه الشهادة للعبقرية المصرية الفذة فيصفه بأنه لغة موسيقية يفهمها كل الناس على اختلاف ألسنتهم فيقول : على الرغم من جهله باللغة التى يمثل بها على الكسار إلا أننى منجذب إليه ولا أرى سواه على خشبة المسرح فلا يحتاج أحد للتأثر به إلى فهم اللغة العربية . وعند تقديمه لدوره « عثمان أفندى فى مسرحية (البخيل) العالمية لموليير والتى قدمه على مسرحه الكبير « الماجستيك » بعماد الدين عام ١٩٣١ باسم « سرقوا الصندوق يا محمد » دخل عليه المؤلف الفرنسى وهو فى حجرة ملابسه ليعبر له عن الإعجاب بعبقريته وقال له العبارة المشهورة : لقد شاهدتها فى بلدى فرنسا ووصفه بأنه فنان أكثر من موهوب .

هذه العبقرية التى نبتت فى أرض مصر ومن طينتها بحى السيدة زينب ، هذا الفنان المعجزة الذى أدرك موهبته وعبقريته منذ طفولته وعرف طريق الفن الذى هيأه الله له ، يحمل معه فى « المخلة » وهو ذاهب إلى الكُتَّاب بجانب لوح الارتواز أدواته الخاصة التى كانت تشغل باله . فقد ظهرت ميول الطفل فى محاكاة زملائه ومداعبتهم وتطلعه إلى عالم آخر فإذا انشغل الشيخ فى الدرس أخرج الطفل من مخلته أراجوز من الورق صنعه بيده وشرع يحركه ويقلد بعض الأصوات وكأنه يريد أن يقدم لزملائه من الأطفال مشهدا هزليا كما كان يجمع أصدقاءه من أطفال الحارة فى حوش البيت ليقدم لهم مشهدا من خيال الظل نسجه من خيال طفولته تحت ضوء لمبة الجاز . ولكنه لم يسلم من عصا الشيخ فوجد فى الكتاب عصا وجدرانا وبابا مغلقا فضاقت نفسه بهذه الحياة وصمم فى داخله على أن يجد لنفسه مخرجا

فخرج من الكتاب بلا رجعة إلى عالم الفن الذى تجلت فيه عبقريته ليسجل لتاريخ المستمع الكوميدى المصرى أنصع صفحاته بفرقته على مسرح الماجستيك بعماد الذين منذ أيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧ وليشهد له العالم بالعبقرية ، وإذا عرفت سيادتكم أنه بجانب إعجازه فى أسلوب الأداء والحضور المسرحى المتأجج ، كان مؤلفا لكثير من مسرحياته وأنه القاسم المشترك لأية مسرحية يقدمها له كاتب فكان يضيف عليها أو يحذف منها كما تمليه عليه عبقريته دون أن يجد الكاتب فى ذلك غضاضة لأنه يؤمن بأنها فى يد عبقرية تجلوها وتكسبها جمالا وحلاوة فكانت تستخدم بجانب تأليف فلان كلمة وتنقيح فلان ، كما ثبتت له موهبة التأليف الفورى وليد اللحظة وكان آية من الفن فى أداء تلك الكوميديا الذى لم يشهد التاريخ مثله حتى سجل له أحد النقاد عن ذلك قائلا : إن ما يأتى به هذا العبقرى فى كل ليلة من بنات أفكاره يرسلها خواطر الساعة وبنت اللحظة تعطى روايته روحا لا يوفق إليها أى مؤلف مهما كان مجيدا طريفا ، كما كان مخرجاً لكل مسرحياته على مدى ٣٢ سنة كصاحب فرقة تحمل اسمه بحرفية وبراعة كأنه دارس لأصول ذلك الفن . كما كان مديرا لفرقته . . أدارها على أحسن ما تكون الإدارة وكأنه دارس لعلم أصول وتنظيم الإدارة . حتى وصفته الصحافة بأنه فرقة فى شخص لا شخص فى فرقة .

فإذا عرفنا أن كل هذه المواهب والملكات تجمعت فى إنسان أمى لا يعرف القراءة والكتابة لأدركنا تماما أننا أمام فنان معجزة بكل ما تحمل الكلمة من معنى جاد بها الزمن وقلما يجود بها الزمن ذلك الفنان العبقرى المصرى الذى مضى على مولده مائة عام سنة ١٩٨٧ ولم يكرمه مهرجان القاهرة السينمائى الدولى ، بينما انبرى لتكريم الخواجة شارلى شابلن عام ١٩٨٩ عن نفس الذكرى ، وقد تبين لى أن لجنة المهرجان تعرف تماما متى ولد شابلن ولا تعرف أبدا متى ولد على الكسار ؟!

إن فنان الشعب على الكسار لم ينل حقه من التكريم لأنه انحاز بفنه ومسرحه إلى الشعب المسكين بطبقاته الكادحة وقدَّمه لأول مرة على خشبة المسرح وجعله بطلا لمسرحياته رغم ما يبدو عليه من طيبة تصل أحيانا إلى حد السذاجة كما يتصور البعض . . لكنه فى الحقيقة هو الذكى الواعى المترقب صاحب الكلمة الأولى والأخيرة البطل المنتصر فى النهاية ، هكذا قدم على الكسار الشعب المصرى على مسرحه متمثلا فى شخصيته الفنية الخالدة الأزلية « عثمان عبد الباسط » الذى راح يقف فى وجه السلطة والاستعمار يطالب بالحرية والاستقلال ورفع الظلم

والمعاناة ويندد بالحماية البريطانية على مصر فى الوقت الذى شكلت فيه حكومته لجنة الثلاثين للاعتراف بالحماية ؟! ويطالب فى مسرحياته باسم الشعب الذى سمح له بذلك لأنه وجد فيه نفسه بتطهير البلاد من أصحاب المطامع . بعد أن كانت البطولة على خشبة المسرح المصرى معقودة على الباشوات وأصحاب الجاه والسلطان . فعلا صوت الشعب فى مسرح الشعب « الماجستيك » فى زمن كاد يراد فيه ألا يعلو صوت الشعب ، ولكن الآن أتساءل وأتعجب : ألم يحن الأوان لكى نكرمه ونخلد ذكراه وتتغنى به مصر بعد أن أصبح الحكم فيها للشعب . إن أطفال مصر العظماء لا يقلون عن أطفال الخواجات العظماء . . لكنى أرى أن الفرق ينحصر فى شىء واحد هو أن هذه الشعوب والبلاد تعرف حق قدر رجالها وتعرف كيف تخرج بهم للعالم ليضعهم فوق الرءوس بينما نحن لا نعرف قدر أنفسنا .

إن شعورى بالأسى لما أصاب هذا الفنان الرائد العملاق العبقرى المعجزة من النسيان والنكران وخروجه من قائمة أطفال عظماء هو الذى دفعنى إلى الكتابة لسيادتكم . فهل أطمع فى وفاء وإخلاص أستاذنا الكاتب الكبير أنيس منصور بأن ينفض الغبار ويرفع الستار عن أول فنان عبقرى مصرى حقق لبلده نهضة مسرحية كوميدية وقدم شعبه بطلا فى مسرحياته فى وقت ينظر إليه الحاكم على أنه كمٌّ « مهمل » بأن يجد له مكانا بجانب العباقرة الخواجات وأن يضم ولو فى ملحق فاتورة أطفال عظماء ولكن نبتوا من أرض مصر وطينها . ذلك الفنان الخالد « على الكسار » .

وفى كتاب « الخالدون مائة : أعظمهم محمد رسول الله (ﷺ) لم يذكر المؤلف مايكل هارت اسم موتسارت العظيم ولكن البطل الخالد رقم (٤٢) هو الموسيقار بتهوفن ولهذه الأسباب :

لود فيج فان بيتهوفن أعظم موسيقار فى كل العصور ، وقد ولد سنة ١٧٧٠ فى مدينة بون . ظهرت موهبته الفذة فى سن صغيرة ، وترجع أول أعماله الفنية إلى سنة ١٧٨٣ ، وكشاب صغير زار مدينة فيينا ، وقدموه إلى الموسيقار موتسارت ، وكان لقاؤهما عابرا ، ومعرفتهما قصيرة . وفى سنة ١٧٩٢ عاد إلى فيينا مرة أخرى ، ودرس على يدى الموسيقار هايدن . وكان فى ذلك الوقت أعظم موسيقار فى فيينا ـ أما موتسارت فكان قد توفى قبل ذلك بعام واحد . وكان على بيتهوفن أن يظل فى فيينا ، عاصمة الموسيقى فى ذلك الوقت ، حتى آخر أيام حياته .

وكانت براعة بيتهوفن فى العزف على البيانو حديث الدنيا كلها ، وكان ناجحا

كعازف وكمدرس للموسيقى وبسرعة توالت أعماله الفنية الرائعة بكثرة مذهلة ، ولم يجد بيتهوفن صعوبة فى أن يكون شهيرا . ولا فى أن يتهافت ناشرو الموسيقى على كل أعماله الفذة وهو ما يزال فى العشرين من عمره ، ولما كان فى أواخر العشرينات من عمره . بدأت تظهر عليه أعراض الصمم وقد تضايق هذا الموسيقار العبقرى من أعراض الصمم ، وفكر فى الانتحار .

أما السنوات بين سنة ١٨٠٢ و ١٨١٥ فقد اعتبرت سنوات منتصف العمر الفنى لبيتهوفن فى هذه الفترة ، ومع تزايد الصمم بدأ ينسحب من الحياة الاجتماعية وأحس الناس فى ذلك الوقت بأنه إنسان مشوه . أو إنسان ذو عاهة . وفى ذلك الوقت كانت له علاقات عاطفية متعددة . ولكن كانت نهايتها تعيسة .

بينما ظل إنتاجه الفنى فيضا غزيرا لا يتوقف وبمرور الوقت كان إحساسه بما يعجب الناس أقل فأقل فهو يبدع دون أن يفكر كثيرا فى الأعمال الفنية التى تستهوى الجماهير . ظل ناجحا رغم كل شىء .

وفى أواخر الأربعينات من عمره أصيب بيتهوفن بالصمم التام . ولم يعد يذهب إلى الحفلات الموسيقية وانسحب اجتماعيا وأصبحت أعماله أقل وأكثر صعوبة ، حتى لم يعد من السهل فهمها . وأصبح يؤلف موسيقاه لنفسه أو لأجيال قادمة . ويقال : إنه أعلن لأحد النقاد : أن هذه الموسيقى ليست من أجلك إنما لأجيال من بعدك .

وإنه لمن سخريات القدر حقا أن يصاب أعظم موسيقار فى التاريخ بعجز تام عن السمع ومن العجب حقا أن أعمال بيتهوفن التى أبدعها وهو أصم تعد من أروع وأعظم من كل ما فاضت به عبقريته قبل ذلك .

وتوفى فى فيينا سنة ١٨٢٧ فى السابعة والخمسين من عمره .

ومن أعمال بيتهوفن تسع سيمفونيات و ٣٢ سوناتا على البيانو وخمس كونشرتات على البيانو والكمان ومجموعة رائعة من الكوراتات الوترية والموسيقى المسرحية وغيرها . . وأروع من هذا الكم « الكيف » أيضا .

فأعماله الموسيقية تضم إلى العمق ذلك الإحساس بالكمال فى بنائها جميعا فقد استطاع بيتهوفن أن يرتفع بأعماله الموسيقية إلى أعلى مستوى فنى بلغة أى إنسان .

وهو موسيقار مبدع أصيل وكثير من إبداعه الفنى ظل عميق الأثر فى الأجيال

التالية . فهو قد أطال السيمفونية ووسع مجالها وعن طريق قدرته الهائلة فى عرض إمكانيات البيانو ساعد كثيرا على أن يجعل البيانو أعظم الآلات الموسيقية . وبيتهوفن هو الذى ساعد الموسيقى على أن تنتقل من مرحلة الكلاسيكية إلى الرومانسية ، كما أنه هو الذى جعل الأوركسترا أكثر عددا وتتجلى عظمة بيتهوفن فى أنه هو الذى وضع معالم الموسيقى الرومانسية فيما بعد .

وكان لبيتهوفن أثره العميق على جميع الموسيقيين فيما بعد . وكان أثره على عباقرة متنوعين فى مزاجهم وقدراتهم وألوانهم مثل : برامز وفاجنر وشوبرت وتشايكوفسكى ، كما أنه مهد الطريق لظهور عباقرة آخرين مثل : برليوز ومالر وريشرد اشتراوس وكثير غيرهم .

وطبيعى أن يتفوق بيتهوفن على كل الموسيقيين الآخرين ، وأن يكون فى مكانة أرفع منهم جميعا ، وعلى الرغم من أن يوهان باخ له نفس القدر العظيم فإن أعمال بيتهوفن قد لقيت شهرة أوسع وجمهورا أكبر ، كما أن ما أبدعه بيتهوفن وما أدخله من تجديدات موسيقية كان أعمق أثرا من موسيقى باخ .

وعموما فإن الأفكار السياسية والأخلاقية والأدبية يكون انتشارها وأثرها أعظم من الموسيقى ، ولهذا جاءت مكانة بيتهوفن تالية لمكانة شيكسبير وإذا نحن قارنا بين الرسام ميكل أنجلو والموسيقار بيتهوفن . فإننا نلاحظ أن الناس أكثر سماعا للموسيقى من رؤيتهم للمعارض الفنية . ولذلك فأنا أعتقد أن الموسيقيين أعظم أثرا من الرسامين والنحاتين ، ولذلك يمكن أن نضع بيتهوفن فى مكانة وسط بين الشاعر الإنجليزى شكسبير والرسام الإيطالى ميكل أنجلو .

* * *

ثم عاد مايكل هارت واختار الموسيقار الألمانى باخ لكونه الرجل الخالد رقم (٧٥) . . ولم يشأ أن يذكر موتسارت ولهذه الأسباب :

هو الموسيقار العظيم يوهان سباستيان باخ ، وهو أول إنسان استطاع أن يؤلف بين الأساليب الموسيقية المختلفة فى أوروبا الغربية كلها ، وذلك بأن مزج ما فى التقاليد الموسيقية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا ، ولم يكن ذائع الصيت فى زمانه ، بل إنه ظل شبه منسى حتى بعد وفاته بخمسين عاما ، ولكنه فى المائة والخمسين عاما الماضية اعتبره النقاد والمؤرخون من أعظم الموسيقيين إن لم يكن أعظمهم جميعا .

ولد باخ فى سنة ١٦٨٥ بمدينة إيزناخ فى ألمانيا ، وكان من حسن حظه أن ولد فى بيئة تحب الموسيقى . وتقدرها تماما . وكانت أسرة باخ كلها نابهة فى الموسيقى لسنوات طويلة قبل ولادته فكان أبوه عازف بارع فى القيثارة . وكان اثنان من أعمامه من المواهب الموسيقية الكبرى ، وعدد كبير من أولاد عمومته من ألمع المؤلفين والعازفين أيضا .

توفيت أمه وهو فى التاسعة من عمره ، وقد تلقى دروسه الأولى فى مدرسة سانت مايكل وكانت المدرسة تساعده ماديا لأن له صوتا جميلا ، ولأن حاجته المادية كانت شديدة . وتخرج فى هذه المدرسة سنة ١٧٠٢ وبعدها بعام واحد حصل على وظيفة عازف على القيثارة فى فرقة موسيقية صغيرة ، وفى العشرين عاما التالية التحق بأعمال كثيرة متنوعة ، وقد اشتهر بأنه عازف أورغون من الدرجة الأولى ، كما أنه عمل مدرسا للموسيقى ومؤلفا وقائدا للأوركسترا ، وعندما بلغ الثانية والثلاثين من عمره حصل على وظيفة منشد (مطرب) فى كنيسة القديس توماس بمدينة ليبستج وظل فى هذا المنصب ٢٧ عاما من حياته حتى توفى سنة ١٧٥٠ .

وعلى الرغم من أن باخ هذا لم يكن بلا وظيفة مرموقة طول عمره ، فإنه لم يلق شهرة موتسارت أو بيتهوفن أو ليست أو شوبان الذين اشتهروا جميعا وهم أحياء ، ولم يتنبه أكثر الذين اشتغل عندهم باخ إلى أنه رجل عبقرى .

وعندما أرادت كنيسة ليبتسيج أن تجد عازفا من الدرجة الأولى ، اختارت باخ لا لأنه كذلك ، ولكن لأنها حاولت أن تجذب رجلين آخرين . . ولم تفلح . فلم يكن أمامها سوى باخ ! وعندما قرر باخ أن يترك عمله فى قصر أحد الأمراء ، وضعه الأمير فى السجن ثلاثة أيام !

تزوج ابنة عمه وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ، وأنجب منها سبعة أولاد ، وتوفيت زوجته هذه عندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، وتزوج مرة أخرى فى السنة التالية ، ولم تكتف هذه الزوجة بتربية أولاده السبعة ، بل إنها أضافت إليهم ثلاثة عشر ولدا آخرين ، ولم يبق من هؤلاء الأولاد سوى تسعة عاشوا بعد وفاة أبيهم ، وأربعة منهم كانوا موسيقيين ممتازين ، إنها أسرة موهوبة حقا !

وكان باخ مؤلفا غزير الإنتاج ، فقد بلغت أعماله الفنية أكثر من ٨٠٠ من روائع الآثار الموسيقية .

وكان رجلا متدينا يحلم بأن تؤدى أعماله الموسيقية إلى تعميق الشعور الدينى ،

ولذلك فأكثرها كانت دينية ولم يبدع أشكالا موسيقية جديدة ، إنما استخدم الأشكال القديمة وألف روائعه الموسيقية والغنائية والمعزوفات المنفردة .

ومن الغريب أن عباقرة الموسيقى فى زمانه كانوا يقدرونه مثل هايدن وموتسارت وبيتهوفن ، فإن الرجل ظل مجهولا فهؤلاء العباقرة قد ابتدعوا أشكالا جديدة فى التأليف الموسيقى ، ولذلك فإن موسيقى باخ التقليدية قد توارت فى الظل ، ولكن فى سنة ١٨٠٠ وما بعدها كانت هناك نهضة موسيقية ، وقد أدت هذه النهضة إلى إحياء باخ والإشادة بعظمته وعبقريته ، وأصبح باخ الآن من أكثر عمالقة الموسيقى شعبية ، ومن العجيب حقا أن موسيقارا مثل باخ عاش ومات على أنه صورة للموسيقى القديمة ، قد أصبح موسيقارا شعبيا فى العصر الحديث !

أما سبب هذه التسمية فترجع إلى أن باخ يعتبر أقدر مؤلفى الموسيقى على « الحرفية » - أى على التزام القواعد والأصول ، وفى نفس الوقت على التفوق على الآخرين ، ولا يزال أقدر الموسيقيين جميعا على استخدام أكثر من ميلودى واحد فى عمل موسيقى واحد .

ولذلك فإن أعماله الموسيقية تلقى إعجابا عظيما ؛ لأنها منسقة ، ولأنها منطقية أيضا ، ولأن الميلودى فى موسيقاه بليغ الدلالة رائع المعنى .

أما دارسو الموسيقى فيرون فى أعمال باخ عمقا وتنوعا وغنى لونيا ، ثم إن أعماله أكثر وضوحا من أعمال كثيرين من عباقرة الموسيقى فى كل العصور .

ولايزال باخ أكثر العباقرة القدامى شعبية ، ما عدا بيتهوفن ، بل إن أسطواناته يقبل عليها الناس فى العالم كله ، أكثر مما يقبلون على الموسيقيين الجدد المعاصرين .

فأين نضعه فى قائمة الخالدين ؟ من المؤكد أن مكانه بعد بيتهوفن لأن بيتهوفن كان مبتدعا جريئا ، وكان له أثر بالغ فى الموسيقى كلها بعد ذلك ، أكثر مما كان لباخ . ومن المناسب أيضا أن يجىء ترتيب باخ بعد الرسام مايكل أنجلو ، ويجىء أيضا بعد الشاعر شكسبير ، وهو أعظم عبقرية أدبية ، ولكن بسبب الأثر العميق الذى تركه فى الموسيقى ، فإن مكانه يجىء سابقا على أى موسيقار أو رسام أو أديب . .

* * *

ولكن موتسارت واحد من الخالدين وبنفس المقاييس فى رأى عدد أكبر من المؤرخين . . وهو أخفهم دمًا وأكثرهم مرحًا . . وموسيقاه أكثر بهجة وحيوية . . ثم إنه معجزة فنية !

قالوا !

أخى كان طفلا جميلا . .

(ماريا أنا موتسارت فى خطاب سنة ١٧٩٩)

* * *

كان وجهك حزينا . . لدرجة أن عددا كبيرا من الناس كان يرى فى وجهك موهبتك . . وكانوا يخافون أن يكون عمرك قصيرا !

(ليوبولد موتسارت فى خطابه لابنه)

* * *

قابلت المايسترو موتسارت ؟! وهو يعمل فى بيت كبير أساقفة سالزبورج ، وهو رجل قوى ، مدرب ، له ولد وبنت ، البنت تعزف على البيانو بصورة فريدة فى براعتها ، والولد فى الثانية عشرة يؤلف الموسيقى ويقود الفرق الموسيقية أيضا ، ورأيت بعض مؤلفاته . لا بأس بها ، ولكنها أكبر من سن هذا الطفل ، ثم إن الطفل وسيم ملىء بالحيوية والرشاقة ومحبوب جدا ، وإذا عرفته فمن الصعب ألا تحبه . . ومن المؤكد أنه سوف يكون معجزة الموسيقى عندما يكبر .

(يوهان أدولف هاسه فى خطاب ٣٠ سبتمبر ١٧٦٩)

* * *

لقد علمنا أن موتسارت كانوا ينقلونه من بلد إلى بلد كأنه كلب ، منذ السادسة من عمره يستعرضونه ويتفرجون على براعة هذا الكلب فى بلاط الملوك والأمراء . . وكان يلقى الترحيب والمداعبة والحنان والهدايا . . وكان هذا الطفل البرىء يسألهم جميعا سؤالا ساذجا : هل تحبوننى ؟ فكل ما كان يحتاج إليه هذا الطفل هو الحب . وحتى قبل أن تشرق عبقريته وتنضج كانوا ينظرون إليه على أنه لعبة يتسلون بها ثم يزهقون منها . .

هل تحبنى ؟ هل تحبنى حقا ؟

نعم يا موتسارت ، أحبك أكثر من أى أحد فى هذه الدنيا . . أحبك أكثر من أى أستاذ فى أى فن . . أحبك أكثر من كل العباقرة فى الدنيا . . أحبك أكثر من الكمال والجمال الفنى فى أى شىء !

(هنرى جيون فى كتابه « البحث عن موتسارت »)

* * *

فى ١٨١٣ كنت فى مدينة دررسدن ، قابلت الممثل لويحى باسبى الذى كتب له موتسارت دوره فى أوبرا (دون جوفانى) وفى أوبرا (زواج فيجارو) قال : إن موتسارت إنسان غريب جدا وفى حالة سرحان دائم ولكن بكبرياء وعظمة . كان محبوبا جدا عند النساء ، رغم أنه صغير الحجم فله وجه جميل بشكل غير عادى وقادر على أن يبهر أية سيدة ، ثم حكى لى أربع قصص أرى من غير اللائق ذكرها .

(ستندال فى كتابه « حياة روسينى »)

* * *

موتسارت كان نحيفا ولكنه متين البناء قامته دون المتوسط ، ولا أعرف طوله بالبوصة أو السنتيمتر ورأسه كبيرا إذا ما قورن بطول قامته ، وله شعر جذاب ، لونه بنى فاتح وله عينان زرقاوان وأنف كبير وأذناه واضحتان ، وإن كانت إحدى أذنيه لها شكل غريب ـ أقصد أذنه اليسرى ، وهذا العيب الخلقى قد ورثه ابنه عنه أيضا !

(بريكسبير فى كتابه « حياة موتسارت »)

* * *

شىء عجيب أن الرجل الذى كانت أذنه الداخلية بالغة الحساسية والكمال جاءت أذنه الخارجية مشوهة ناقصة النمو !

(جربر)

لقد كانت أذن موتسارت دائرية أو مربعة الشكل نصفها العلوى مفلطح . . أما بقية الأذن فناقصة النمو . .

(باكستون « فى الصحيفة الطبية البريطانية »)

* * *

بعد أن استمع إلى موسيقاه وهو فى العاشرة من عمره كتب يقول : سادتى لقد استمعتم دون أدنى شك إلى الطفل موتسارت . . إنه يعزف على البيانو مثل كل الأساتذة العظماء ، وقد تأكد لدينا صحة ما قيل لنا من أنه كان رائع العزف وهو فى الثالثة من عمره ، إن هذا الطفل قد تلقى تعليما رفيعا كاملا لدرجة أن أى نشاز يوجعه ويجعله يبكى .

(د. يتسو)

* * *

إن موتسارت يكتب كل شىء بسهولة ، لدرجة يخيل إليك أنه يلعب . الحقيقة أن كل شىء قد كتبه قبل ذلك وبمنتهى الدقة ، وهو لا يجلس إلى البيانو لكى يؤلف . أبدا . . لقد ألف كل شىء فى خياله وذاكرته قبل أن يبدأ فى العزف ، ولذلك فمن الممكن أن يضحك وهو يعزف . . فالضحك لا يعوقه . . لأنه لا يؤلف . وإنما هو يعزف ما قد ألفه قبل ذلك !

(فرانتس فيمتشك فى كتابه « حياة موتسارت » ١٧٩٩)

* * *

يخطئ تماما من يتصور أن الفن يجيىء بسهولة ، أؤكد لك يا صديقى العزيز ، أن أحدا فى الدنيا لم يخصص وقتا وفكرا مثلما أفعل لكى أؤلف موسيقاى . فلا يوجد موسيقار واحد لم أدرس موسيقاه بعناية شديدة واهتمام بالغ . .

(موتسارت)

* * *

طلبت من واحد من الذين يشككون فى عبقرية ابنى أن يعطيه أية قطعة موسيقية ليقرأها فقط . ليقرأها . . وبعد ذلك سوف يعزفها ابنى فورا كأنه قد عزفها قبل ذلك ألف مرة . . فأعطاه القطعة الموسيقية ووقف الرجل فى ذهول يستمع إليه

فقال : أعترف بكل صدق أن هذا هو أعظم إنسان فى العالم ،لقد عزفها وصحح فى نفس الوقت الأخطاء الفنية التى وقعت فيها !

(ليوبولد موتسارت)

* * *

إن هذا الطفل سيغرقنا جميعا فى بحار النسيان !

(يوهان أدولف هاسه)

* * *

إن موسيقاه الجميلة الرقيقة العذبة الحلوة الملهمة تجعلنى أنسى كل همومى .. هموم الحاضر والماضى وأنظر إلى المستقبل فى بهجة تامة .

(الأديب مارتينا دى برنوف)

* * *

قلت لك : إن هذا الطفل موتسارت : معجزة .. لا أكثر ولا أقل . وسوف يبقى كذلك!

(الأب جاليانى)

* * *

إنه أعظم عازف بيانو رأيته فى حياتى . إنه يحاول أن يكون جديدا . يحاول بكل قدراته . ولذلك فالجانب العاطفى فى أعماله قليل . إن الموسيقى التى أهداها إلى الموسيقار هايدن تعتبر من الإبداع الخالد .

(ماكس جراف)

* * *

إن مثل هذه الموسيقى المليئة بالقوة والعظمة والأبهة لا تعجب التافهين عشاق الموسيقى العادية .. إن العظمة والنبل فى أوبرا (دون جوفانى) لا تعجب إلا عددا قليلا من الناس .. صفوة الصفوة .. إنها موسيقى لا تدغدغ آذان العوام .

(شنيك ـ سنة ١٧٩٠)

* * *

موتسارت هو واحد من أعظم الموسيقيين وأكثرهم أصالة ، وأنا لم أعرف موسيقارا عنده مثل هذا الثراء فى إبداعه .. إنه يجعلك تلهث وراءه . فلا يكاد يقدم لك عبارة

جميلة ، وقبل أن تفرغ من الاستمتاع بها ، يقدم لك ثانية وثالثة . . ولا يزال يفعل ذلك حتى تجد نفسك فى النهاية غير قادر على أن تتذكرها جميعا !

(الموسيقار كارك دترز فى كتابه « قصة حياتى »)

* * *

إذا كان هناك من خطأ فى موسيقى موتسارت : فهى هذه الوفرة . . هذا الثراء الفاحش فى عباراته وإلهاماته الموسيقية ، ولكن ما أسعد الفنان الذى عيبه الوحيد هو الكمال !

(ألبرست.١٧٩١)

* * *

موتسارت : إنه إله !

(أنطونيو ساليبرى)

(فى مسرحية من تأليف الشاعر بوشكن اسمها « موتسارت وساليبرى »)

* * *

بل إن الله يحتاج إلى موتسارت ليعرفه الناس ويعبدوه !

(أنطونيو ساليبرى فى مسرحية « أماديوس » تأليف ميتر شافر)

* * *

أقول لك أمام الله وكإنسان شريف أن ابنك هو أعظم موسيقار . . فعنده ذوق رفيع ولديه أعظم قدرة على التأليف الموسيقى .

(الموسيقار هايدن)

(بعد سماعه للوتريات الستة التى أهداها له موتسارت)

* * *

وقد بعث موتسارت مع هذه الوتريات الستة هذا الخطاب إلى هايدن :

إلى صديقى العزيز هايدن

إننى مثل الأب الذى قرر أن يبعث بأولاده الستة إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكل أمرهم إليك . . إلى رعايتك وتوجيهك ، وأنت الرجل الشهير جدا وفى نفس الوقت أعز أصدقائى . .

أبعث إليك بأبنائى الستة ، يا أشهر الناس وأعز الأصدقاء ، إنهم حقا ثمرة دراسة طويلة شاقة ، وكثير من أصدقائى قد أكد لى أن هذه الأبناء سوف يكونون سلواى فى المستقبل .

خلال إقامتك فى هذه العاصمة ، أنت نفسك يا صديقى العزيز ، قد أعربت عن موافقتك على هذه الأعمال الستة ، ورأيك هذا قد شجعنى على أن أهديها لك ، وأملى ألا تنظر لها على أنها لا تليق برضائك ، أرجوك أن تشمل هذه الأبناء بعطفك وأن تكون لهم أبا وهاديا ومرشدا ، وأنا أعطيك مطلق الحرية فى التعامل معهم ، وأنا أتوسل إليك أن تتغاضى عن الأخطاء التى غابت عن عين الأب المتحيز لأبنائه . ورغم هذه الأخطاء أرجو أن تغمرنى بصداقتك الكريمة التى أعتز بها . وسوف أبقى من كل قلبى صديقك العزيز ، وأخلص الأصدقاء .

(موتسارت «أول سبتمبر فيينا١٧٨٥»)

* * *

إن موسيقى موتسارت تبدو أجمل وأجمل وأجمل كلما استمعنا إليها !

(الموسيقار شومان)

* * *

إذا لم نستطع أن يكون لنا جمال موسيقى موتسارت ، فلنحاول أن يكون لنا نقاؤها !

(الموسيقار برامز)

* * *

إن الألمان هم أعظم مؤلفى الهارمونى ، والإيطاليون أعظم مؤلفى الميلودى .. ولكن منذ ظهر موتسارت فهو قد استطاع هزيمتنا على أرضنا . فهو الموسيقار الذى أعلى من كل الشعوب شمالا وجنوبا . إنه الموسيقار الذى له من المعرفة ما يجعله عبقريا ، وله من العبقرية ما يجعله عارفا بكل شىء !

(الموسيقار روسينى)

* * *

إننى أتعاطى بيتهوفن مرتين فى الأسبوع وهايدن أربع مرات وموتسارت كل يوم !

(روسينى)

* * *

هناك نوعان من العبقرية :

عبقرية فطرية وعبقرية عقلية

إننى أعجب بالعبقرية العقلية ، ولكن لن أخفى حقيقة إعجابى بالعبقرية الفطرية . وعندى الشجاعة فى أن أفضل رفائيل على مايكل أنجلو وموتسارت على بيتهوفن وروسينى على مايربير .

(الموسيقار بيزيه)

* * *

إن موتسارت يحتوى كل مجالات الإبداع الموسيقى ، ولكنى أملك أصابع البيانو فى دماغى .

(الموسيقار شومان)

* * *

العبقرية من الممكن أن تبدع دون أن يكون عندك ذوق ـ بيتهوفن مثلا . ولكن موتسارت عبقرى وعنده أعظم الأذواق رقة وجمالا !

(الموسيقار دوبيسى)

* * *

الجمال يجب أن يستهوى كل الناس ، وأن يرضى كل المشاعر ، وأن يحقق لنا السرور فورا دون جهد منا . . مثل ليوناردو دافنشى . . مثل موتسارت . وهما أعظم الفنانين فى التاريخ !

(الموسيقار دوبيسى)

* * *

ما الذى جعل لباخ وموتسارت هذين المكانين الفريدين فى التاريخ : إنهما

لايضحيان بالشكل من أجل التعبير . فكلما ارتفع التعبير ظل الشكل الموسيقى ساميا رفيعا !

(سان.ساينسى)

* * *

إنى مؤمن بالله وموتسارت وبيتهوفن .

(الموسيقار فاجنر)

* * *

إن عبقرية موتسارت الجبارة ، قد دفعته فوق عظماء التاريخ وعظماء كل الفنون !

(الموسيقار فاجنر)

* * *

إنى أجد الجمال والبهجة وحب الحياة فى موسيقى موتسارت . . إنه رمز الصحة والعافية والمرح والجمال ونعيم الدنيا .

(الموسيقار تشايكوفسكى)

* * *

كان أساتذتى باخ وموتسارت وبعد ذلك بيتهوفن وبرامز وفاجنر !

(الموسيقار شينبرج)

* * *

كل موسيقار يجب أن يحفظ تماما سيمفونيات موتسارت السبعة الأخيرة !

(الموسيقار بارتوك)

* * *

من شيكسبير وسويفت تعلمت الكتابة ، ومن موتسارت تعلمت كيف أفكر ، إنه أعظم الموسيقيين . . لقد علمنى كيف أقول أشياء عميقة وأن أكون فى نفس

الوقت مهذبا . كنت أقول لتلامذتى دائما : إن شيئين فى هذه الدنيا يجعلان للحياة معنى وطعما : موتسارت ونظريات الكم فى الفيزياء !

(فايسكونف « العالم الفيزيائى الشهير »)

* * *

موتسارت أعظم موسيقار في العالم . . بيتهوفن خلق موسيقاه ، ولكن موسيقى موتسارت من النقاء والجمال لدرجة أنه يجعلنا نحس أنه (وجدها) . . هذه الموسيقى موجودة هناك كجزء من الجمال العميق لهذا الكون فى انتظار عبقرى يكشف عنها الغطاء .

(أينشتين)

* * *

السوناتات التى ألفها موتسارت فى استطاعة أى طفل أن يعزفها ، ومن الصعب على أى موسيقار أن يؤلفها !

(شومان)

* * *

ألم أقل لك إننى أؤلف هذا اللحن الجنائزى من أجلى أنا ؟!

(موتسارت ٥ ديسمبر ١٧٩١)

* * *

وفاة موتسارت قبل أن يكمل الخامسة والثلاثين هى أفدح خسارة للموسيقيين !

(الموسيقار جيريج)

* * *

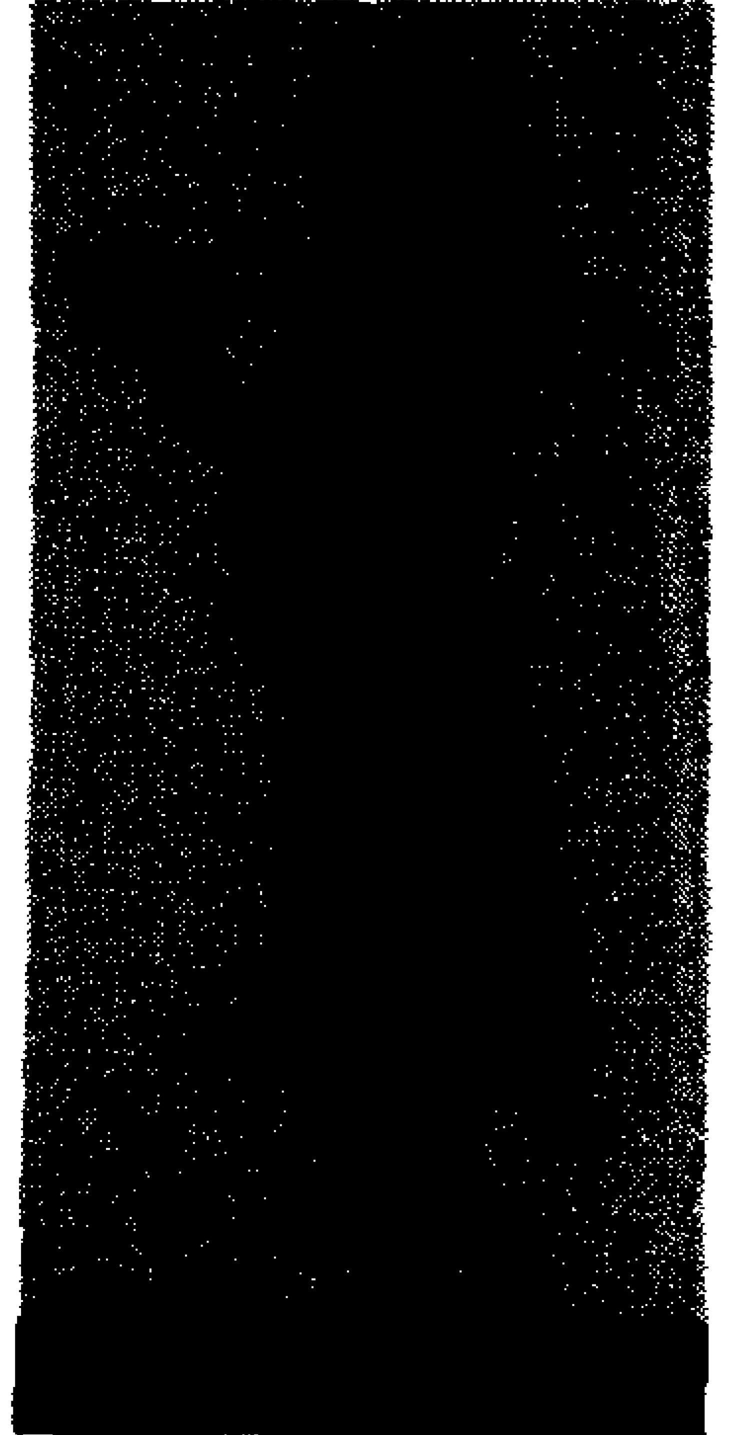
ما دام الموت هو الهدف والنهاية الصادقة لهذه الحياة ، فقد اعتدت على فكرة الموت من سنوات طويلة . . ولم تعد صورته تخيفنى . . بل إننى عندما أدخل فى فراشى كل ليلة أشعر أننى لن أعيش حتى الغد . . إن هذه الفكرة الغامرة تسعدنى كل ليلة ، وأتمنى أن يشعر بها كل الناس .

(موتسارت فى خطاب إلى والده)

* * *



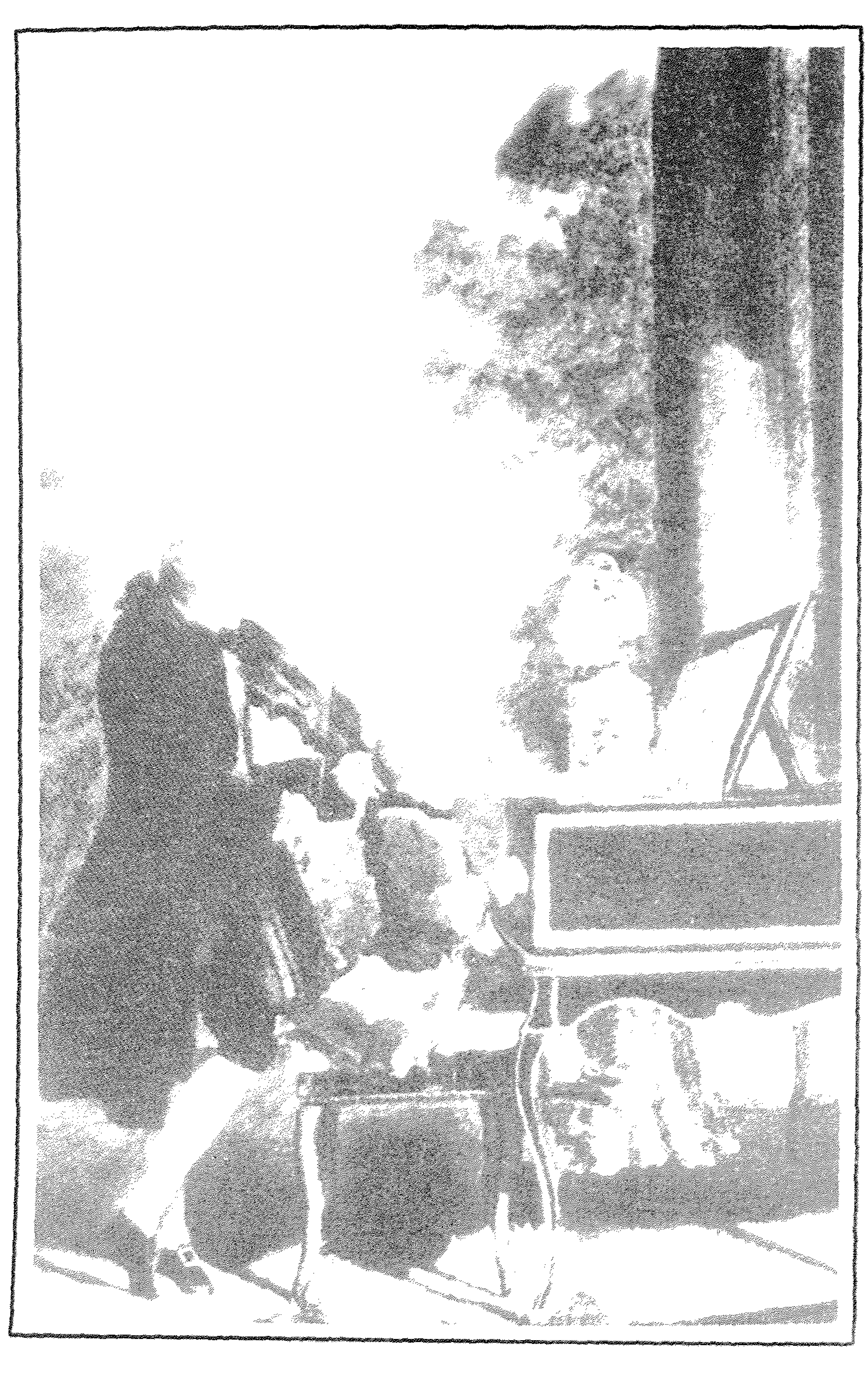
بعض اللوحات والأسكتشات
التى رُسِمَت
لموتسارت وبعض أقاربه
أثناء حياته







الأب.. ليوبولد موتسارت سنة ١٧٦٥



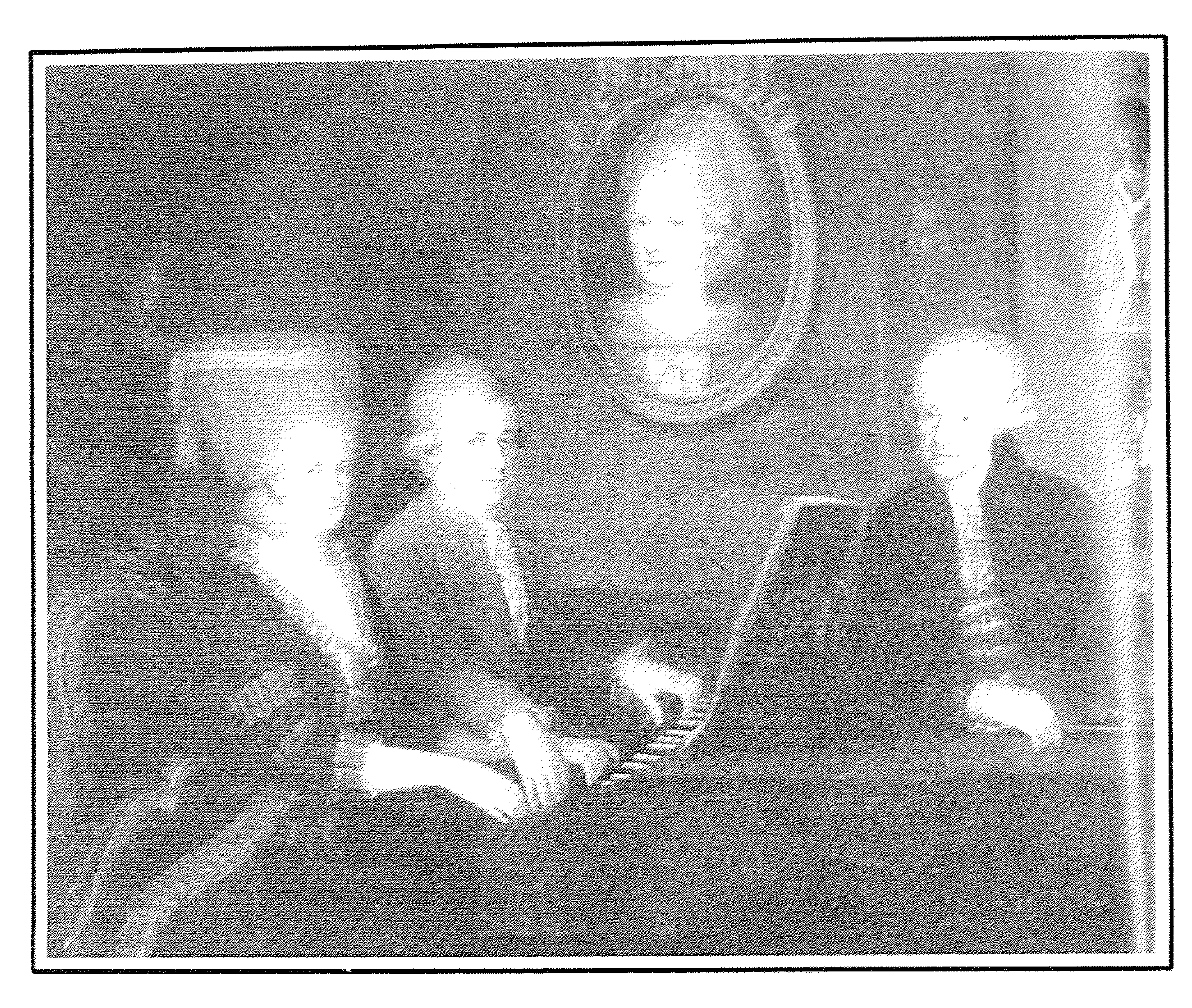
الاب.. ليوبولد وهو يصاحب
ابنه موتسارت الجالس الى البيانو



لوحة للطفل موتسارت
سنة ١٧٦٣



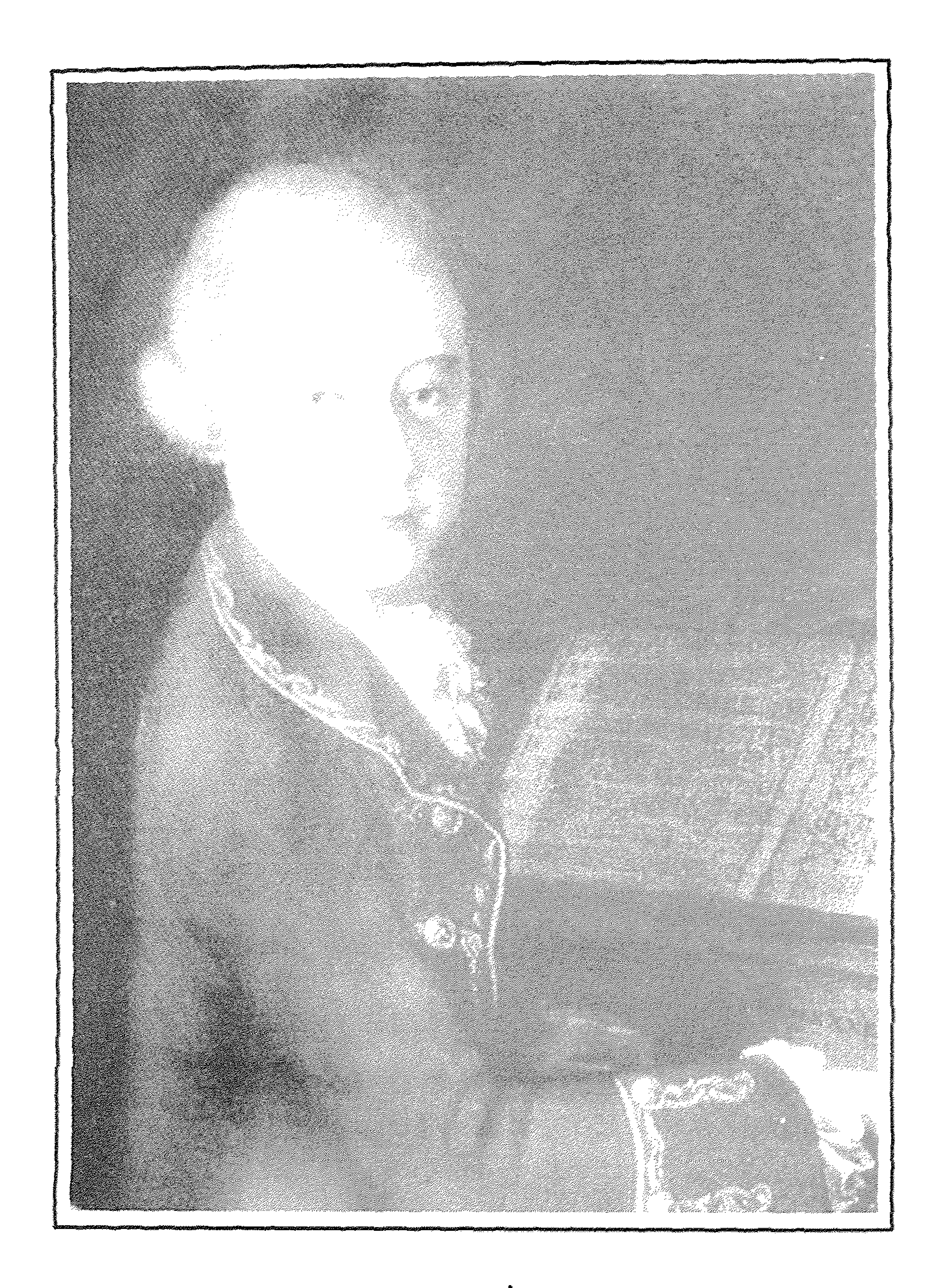
اسكتش للطفل
موتسارت



الأب.. والإبن موتسارت وأخته..
والأم فى لوحة على الحائط



أخته.. ماريان موتسارت سنة ١٧٦٣



موتسارت في يناير ١٧٣٠

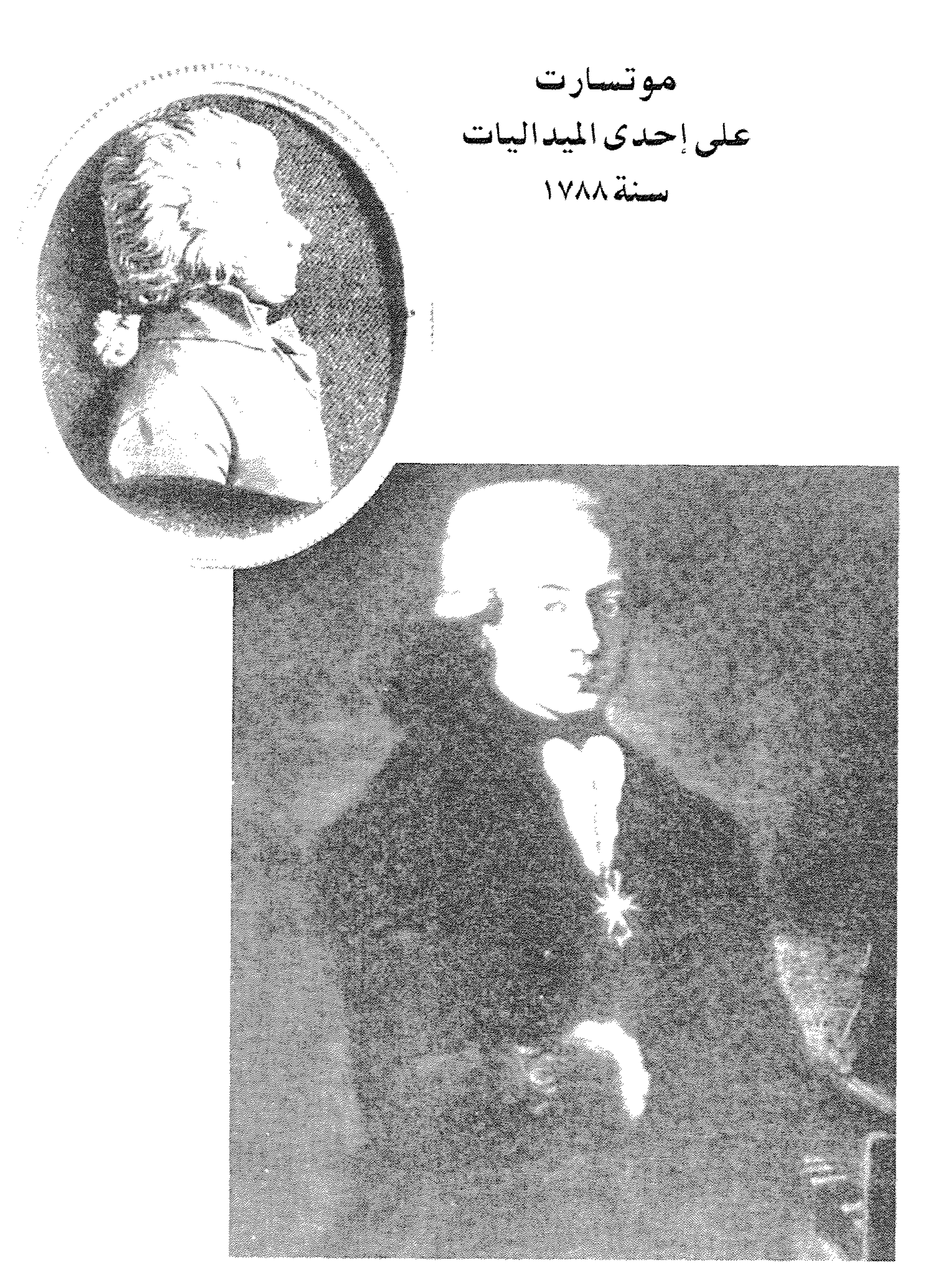


بروفيل لموتسارت
نحت على ميدالية سنة ١٧٨٨ / ١٧٨٩

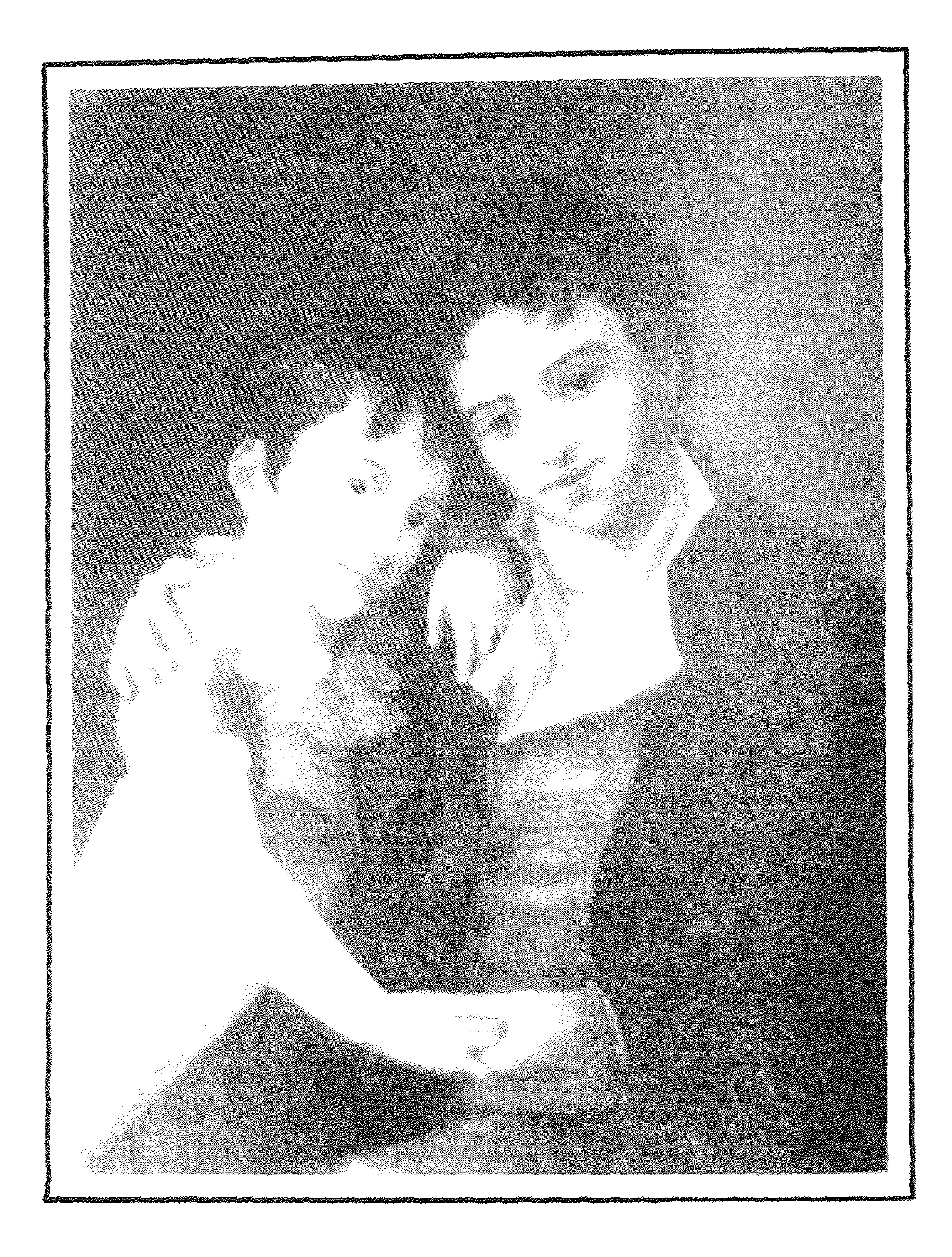
اسكتش
لموتسارت

لوحة لموتسارت
سنة ١٧٨٩

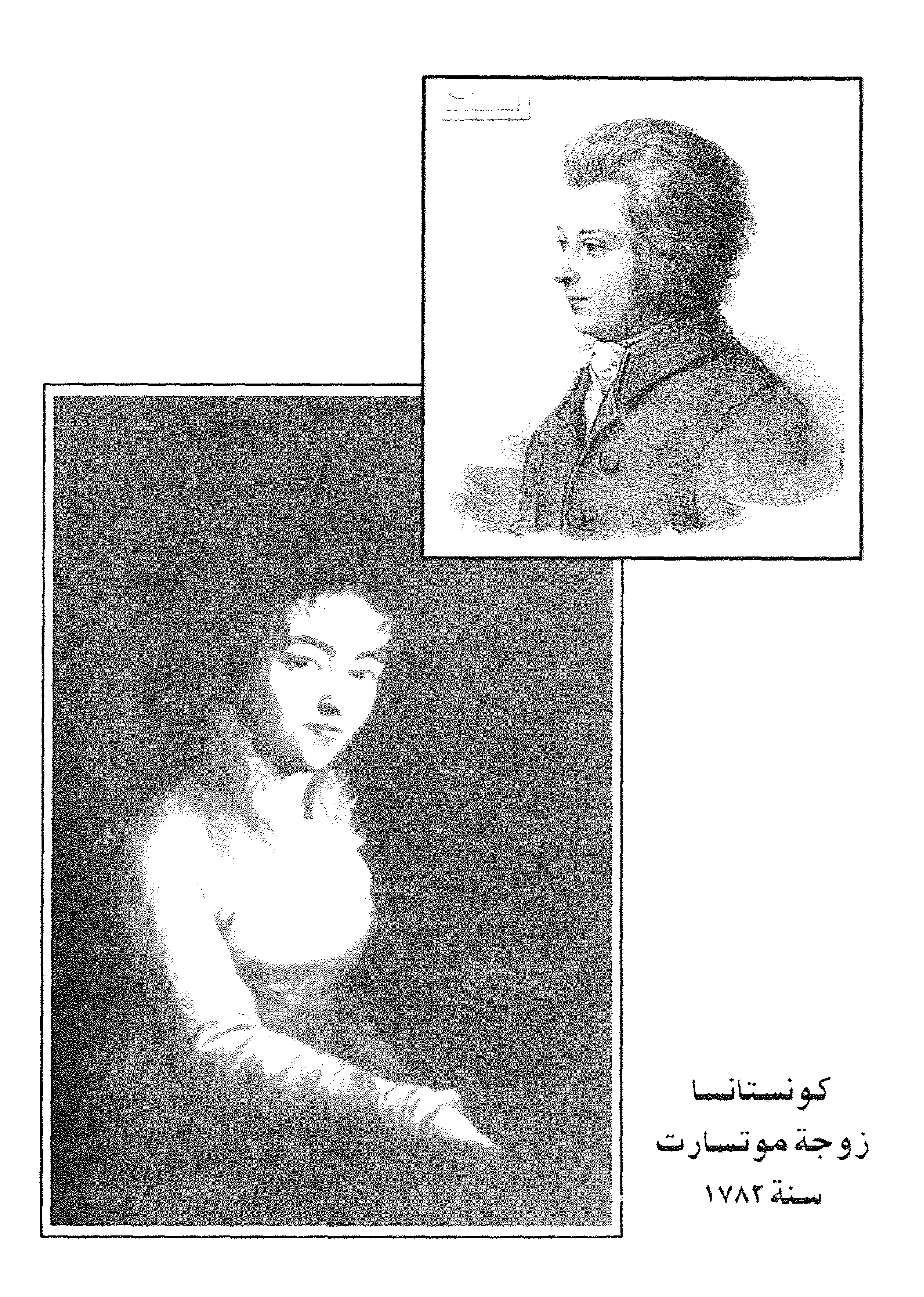
موتسارت
على إحدى الميداليات
سنة ١٧٨٨



لوحة لموتسارت وقد وضع نيشان
الريشة الذهبية سنة ١٧٧٧



كارل وفرانز أبناء موتسارت
في لوحة رسمت سنة ١٧٩٨ / ١٧٩٩



كونستانسا
زوجة موتسارت
سنة ١٧٨٢

كتب للمؤلف

(ا) ترجمة ذاتية:

١ - فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ - عاشوا فى حياتى
٣ - الا قليلا
٤ - طلع البدر علينا
٥ - البقية فى حياتى
٦ - نحن أولاد الغجر
٧ - من نفسى
٨ - حتى أنت ياأنا
٩ - أضواء وضوضاء
١٠ - كل شىء نسبى
١١ - شارع التنهدات
١٢ - أمى .. ابنها !
١٣ - أول مرة

(ب) دراسات سياسية:

١ - الحائط والدموع
٢ - وجع فى قلب اسرائيل
٣ - الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ - عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا
٥ - فى السياسة (ثلاثة اجزاء)
٦ - الدين والديناميت
٧ - لا حرب ولا سلام فى أكتوبر
٨ - السيدة الأولى
٩ - التاريخ انياب واظافر
١٠ - الخالدون مائة - اعظمهم محمد رسول الله (ﷺ)
١١ - لعنة الفراعنة
١٢ - على رقاب العباد
١٣ - ديانات اخرى
١٤ - وكانت الصحة هى الثمن
١٥ - الغرباء
١٦ - الخبز والقبلات
١٧ - مواقف (٣ أجزاء)
١٨ - انتهى زمن الفرص الضائعة
١٩ - الرئيس قال لى وقلت له !!
٢٠ - نار على الحدود

(جـ) قصص..

١ - عزيزى فلان
٢ - هى وغيرها
٣ - بقايا كل شىء
٤ - يامن كنت حبيبى
٥ - قلوب صغيرة
٦ - فوق الركبة
٧ - هذه الصغيرة (وقصص اخرى)
٨ - عريس فاطمة
٩ - يوم بيوم
١٠ - أنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى:

١ - يسقط الحائط الرابع
٢ - وداعا ايها الملل
٣ - كرسى على الشمال
٤ - ساعات بلا عقارب
٥ - مع الاخرين
٦ - شىء من الفكر
٧ - لو كنت ايوب
٨ - يعيش .. يعيش ..
٩ - الوجودية
١٠ - عذاب كل يوم
١١ - طريق العذاب
١٢ - وحدى .. ومع الاخرين
١٣ - مالاتعلمون
١٤ - لحظات مسروقه
١٥ - كتاب عن كتب
١٦ - انتم الناس ايها الشعراء
١٧ - أوراق على شجر
١٨ - فى تلك السنة
١٩ - دراسات فى الادب الامريكى
٢٠ - دراسات فى الأدب الالمانى
٢١ - دراسات فى الادب الايطالى
٢٢ - فلاسفة وجوديون
٢٣ - فلاسفة العدم
٢٤ - أظافرها الطويلة
٢٥ - كيمياء الفضيحة

(هـ) رحلات:

١ - حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ - بلاد الله خلق الله
٣ - غريب فى بلاد غريبة
٤ - اليمن ذلك المجهول
٥ - أنت فى اليابان وبلاد اخرى
٦ - اطيب تحياتى من موسكو

٧ - اعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية:

١ - مدرسة الحب
٢ - حلمك ياشيخ علام
٣ - مين قتل مين
٤ - جمعية كل واشكر
٥ - الاحياء المجاورة
٦ - سلطان زمانه
٧ - حقنة بنج
٨ - العبقرى
٩ - الكلام لك ياجارة ..
١٠ - شين ٣

(ز) مسرحيات مترجمة:

*** للاديب السويسرى ديرنات:**

١ - رومولوس العظيم
٢ - زيارة السيدة العجوز
٣ - زواج السيد مسيسبى
٤ - الشهاب
٥ - هى وعشاقها
٦ - هبط الملاك فى بابل

*** للاديب السويسرى فريش:**

١ - أمير الاراضى البور
٢ - مشعلو النيران

*** للاديب الفرنسى جان جيرودو:**

١ - من اجل سواد عينيها

*** للاديب الامريكى ارثر ميللر:**

١ - بعد السقوط

*** للاديب الامريكى تنسى وليامز:**

١ - فوق الكهف

*** للاديب الامريكى يوجين اونيل:**

١ - الامبراطور جونس

*** للاديب الفرنسى يوجين ليونسكو:**

١ - تعب كلها الحياة

*** للاديب الفرنسى أداموف:**

١ - الباب والشباك

*** للاديب الاسبانى ارابال:**

١ - ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية:

١ - الحنان اقوى
٢ - من اول نظره
٣ - طريق العذاب
٤ - الوان من الحب
٥ - شباب .. شباب
٦ - مذكرات شاب غاضب
٧ - مذكرات شابة غاضبة
٨ - جسمك لايكذب
٩ - اثنين .. اثنين
١٠ - الذين هاجروا
١١ - غرباء فى كل عصر
١٢ - اظافرها الطويلة
١٣ - هموم هذا الزمان
١٤ - الحب الذى بيننا
١٥ - عذاب كل يوم
١٦ - القلب ابدا يدق
١٧ - الا فاطمة (من الذى لا يحب فاطمة)

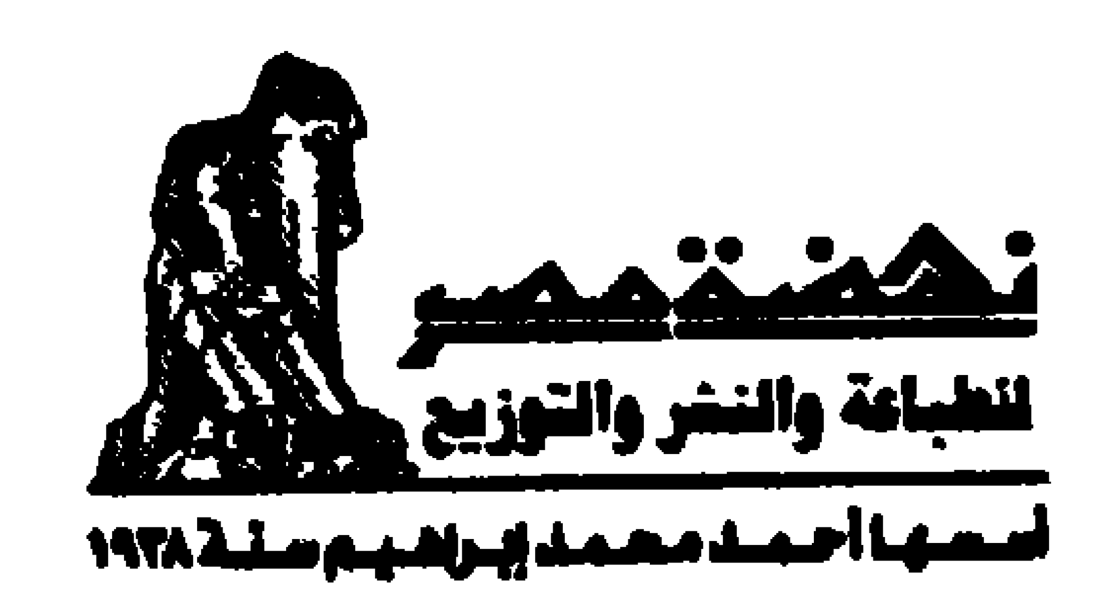
(ط) دراسات علمية:

١ - الذين هبطوا من السماء
٢ - الذين عادوا الى السماء
٣ - القوى الخفية
٤ - ارواح واشباح
٥ - لعنة الفراعنة

مقالات:

١ - شباب حائر
٢ - دعوة للابتسام
٣ - عندى كلام
٤ - لعلك تضحك
٥ - الحيوانات الطف كثيرا
٦ - احب واكره
٧ - تولد النجوم وتموت
٨ - ثم ضاع الطريق
٩ - هناك امل
١٠ - مصباح لكل انسان
١١ - اتمنى لك
١٢ - لعل الموت ينسانا
١٣ - اقرأ اى شىء
١٤ - ولكنى اتأمل
١٥ - نحن كذلك
١٦ - اللهم انى صائم
١٧ - الحب والفلوس والموت .. وأنا
١٨ - حتى تعرف نفسك
١٩ - آه لو رأيت
٢٠ - تعال نفكر معا
٢١ - كائنات فوق
٢٢ - ايها الموت لحظة من فضلك
٢٣ - هناك فرق

الفهـــرس


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

عندما شرع كاتبنا الكبير فى كتابة هذا الكتاب توقف كثيراً عند الحياة المرضية لعدد من الموسيقيين العظماء أمثال بتهوفن .. بجانتى .. باخ .. هندل .. شوبان .. سيد درويش .. عبدالوهاب .. السنباطى وغيرهم من الموسيقيين العظماء .

ثم سرعان ما ضاعت كل هذه الأوراق التى كتبها ولم يتبق منها سوى هذا الكتاب عن موتسارت الذى قال عنه المؤلف ليس أحد أشهر من الطفل المعجزة : موتسارت وليس أحد مجهولاً مثله ..

فلقد عاش مريضاً طول عمرة .. كان أصفر اللون شاحباً هزيلاً دميماً .. كان قصير القامة قصير النظر .. رافقته فى حياته القصيرة أمراض كثيرة حار الأطباء فى تشخيصها .

لم يكن ناياً سحرياً واحداً .. بل ألف ألف .. إنها أبهة عظمة فخامة .. جمال .. جلال .

الناشر

